٥١٨
518
HARLEQUIN

WWW.REWITY.COM

مرمورية

أغنية الفجر

سارة كريفن

أغنية الفجر

سارة كريفن

«إنك تخفين شيئاً في أعماقك، يا مارغريت.»

لو أن جيروم مونتكورت يدرك مدى خداعها! فهو لا يعلم شيئاً... حتى الاسم الذي ذكرته له، لم يكن اسمها. ولكن ميغ وجدت أن ذلك الرجل الفرنسي الجذاب كانت له أسراره هو أيضاً... ليس أقلها ماهية شعوره الحقيقي نحوها.

www.rewity.com

«ليس من الحكمة دوماً، يا آنسة، أن تجازفي.»

كان في صوته نبرة غريبة. كانت أشبه بالتحذير الذي يقرب من الوعيد. وشعرت ميغ بقشعريرة تسري في جسدها. أم لعلها مجرد تصورات من أثر الصدمة التي انتابتها؟

ورأت ابتسامته تلتوي قليلاً بطريقة تهكمية وكأنه أدرك ما تفكر فيه.

سارة كريفن

ولدت سارة كريفن في ساوث ديفون ونشأت محاطة بالكتب، في منزل قريب من البحر. وبعد أن تركت مدرسة القواعد، عملت صحافية محلية، تغطي كل الاخبار الاجتماعية في ما يتعلق بمعارض الزهور، إلى الجرائم. وقد ابتدأت بالكتابة لمؤسسة ميلز اند بون في سنة ١٩٧٥.

عدا عن الكتابة، فهي تهوى الأفلام والموسيقى والطبخ وتناول الطعام في المطاعم الفاخرة. وهي الآن تعيش في سومرست مع زوجها الثاني، وهو رياضي دولي سابق في لعبة الرغبي. وكلبي صيد. عندها ولدان وثلاثة أولاد لزوجها.

٥١٨

خلوب عبير

khouloub Abir 518

أغنية الفجر

سارة كريفن

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.rewity.com

الفصل الأول

«إنه حل مناسب تماماً. يمكنك أن تذهبي لتأخذي مكاني.»

ولكن قول مارغوت ترانت المرح هذا، قوبل بصمت عميق. وتمتمت ميغ لانغتري: «دعيني أستوضح الأمر تماماً. إنك تريدين مني أن أسافر إلى جنوب فرنسا، في الشهر القادم، وأمكث مع خالتك في قصرها، منتحلة شخصيتك.» وسكتت وهي تلقي على أختها غير الشقيقة نظرة طويلة متأملة، لتتابع بعدها قائلة: «هل هذه هي العناصر الأساسية في التمثيلية؟»

سألتها مارغوت: «وما الخطأ في هذا؟ إن تلك العجوز تريد من يمكث معها لمدة أربعة أسابيع لكي تتمكن مرافقتها المستعبدة تلك أن تأخذ فرصة ترتاح فيها، فما هي المشكلة في ما لو ادعت فتاة بأنها مارغوت ترانت؟»

فردّت عليها ميغ بسخرية بالغة: «ليس ثمة مشكلة طبعاً. حتى عدم الشبه بيننا، ليس له أهمية على الإطلاق.»

فهزت مارغوت كتفيها قائلة: «إنني شقراء، وأنت سمراء.» وألقت نظرة استخفاف على شعر ميغ البني المسترسل البسيط الطراز، وهي تتابع: «وهذا يمكن تعديله بسهولة. أما بالنسبة للأشياء الأخرى، فهي عمياء تقريباً وهذا هو السبب في حاجتها إلى مرافقة دائمة، فهي لن تتمكن من رؤيتك بوضوح.»

تمتمت ميغ: «هذه هي نهاية طموحي.»

مالت مارغوت إلى الأمام قائلة بحدة: «هيا يا ميغ، يمكنك القيام بذلك بكل سهولة، ذلك أنه ليس ثمة وظيفة لك تقلقين بشأنها ما دامت المكتبة التي تعملين فيها ستقفل أبوابها في نهاية الأسبوع. يجب أن تدركي هذا.»

قالت ميغ معترضة: «ولِمَ لا؟ ان البرلمان يمنح لاعضائه إجازة في الصيف. من المؤكد أن ستيفن سيعطيك اجازة.»

أجابت مارغوت وقد ظهر على وجهها الجميل انفعال مفاجيء: «ربما سيفعل إذا أنا طلبت منه ذلك، ولكنه على وشك أن يطلب الطلاق من زوجته، وأنا لا أريد أن أتركه في هذا الوقت بالذات.»

تمتمت ميغ بجفاء: «لقد فهمت.» ذلك أنه، مهما كان رأيها في هذا العمل المقيت، فقد كانت أختها بسبيله منذ وجدت عملاً كسكرتيرة عند ستيفن كيرتيس عضو البرلمان الشاب الذي كان مرشحاً لرتبة وزارية في الحكومة المقبلة.

قالت مارغوت باستياء: «ثم أنه ليس لديه الحق في استدعائي بهذا الشكل المفاجيء، إنني لم أرها منذ كنت في التاسعة من عمري.»

قالت: «إنني أعجب لعدم سماعي بها حتى الآن.»

هزت مارغوت كتفيها قائلة: «إنها في الواقع، عمة أبي، وكانت تحبه كثيراً. وقد أطلق عليّ اسمها. وهكذا، نحن الثلاثة، بنفس الاسم. أليس هذا شيئاً جميلاً؟»

أجابت ميغ وهي تهز رأسها: «هذا غريب، ولكنه خارج عن موضوعنا الآن، ألا يمكنك أن تكتبي إليها لتخبريها بعدم تمكنك من الذهاب إليها.»

أجابت مارغوت بحدة: «كلا، إن هذا في منتهى الغباء. ذلك أن ليس لها أولاد ولا أقرباء حسب ما أعرف. وإرث مثل قصر في لانغيدوك هو شيء لا يمكن الاستهانة به. وهكذا ترين أن من الضروري أن أكون بجانبها.» ونظرت إلى ميغ بابتسامة متوسلة وهي تستطرد: «أو تقومين أنت بذلك باسمي.»

عضت ميغ شفتها قائلة: «لا سبيل إلى ذلك. لأننا لن نستطيع الافلات من سوء النتيجة، هذا عدا عن الاعتبارات الأخلاقية.»

أجابتها مارغوت: «ليس ثمة ضرر في ذلك. الأمر هو أن مارغوت ترانت قد استدعيت. ومن المفروض أن هذه ستصل في الوقت المعيّن. وأنت مناسبة، أكثر مني للعناية بعجوز كئيبة. اجعليها راضية لأجلي، وساكون شاكرة لك إلى الأبد.»

قالت ميغ وهي تدفع شعرها إلى الخلف: «أهذا إذن، هو الحافز الذي يدفعني للقبول؟ إنك حقاً، عديمة التفكير يا مارغوت. وعليك أن تقومي بعملك القذر هذا بنفسك.»

قالت مارغوت وهي تنظر إلى أظفارها: «هل أنت ذاهبة؟ كنت أظن أن المكتبة تقفل أبوابها أيام الأربعاء.»

أجابت ميغ: «هذا صحيح. وأنا أمضي هذا النهار مع مربيتي تيرتر كالعادة.»

قالت مارغوت: «طبعاً في كوخها الجميل، أم عليّ أن أقول كوخنا؟»

ضاقت عينا ميغ لتقول بعد برهة: «إن كوخ بريدونس هو لإقامة المربية طوال حياتها. لقد أوضح أبي ذلك قبل موته.»

قالت مارغوت: «نعم، ولكنه لم يقرر ذلك كتابة، يا حبيبتي، وليس هناك وثيقة قانونية بذلك. ومنذ أيام قامت أمي بزيارة خاطفة إليه. ذلك أن أصدقاءها، آل نيستور، يبحثون عن مكان يمضون فيه عطلة نهاية الأسبوع. ويبدو أن هذا المكان ملائم جداً.»

حدقت ميغ فيها قائلة: «إنك، طبعاً، غير جادة بذلك. إن المربية مولعة جداً بالكوخ.»

أجابت مارغوت بجفاء: «طبعاً لا بد أنها كذلك، فهو مكان مرغوب جداً.»

قالت ميغ: «ولكن، ليس ثمة مكان آخر لتذهب إليه.»

فأجابت مارغوت والحقد يكسو ملامحها: «هنالك ملجأ العجزة. إن لأمي أصدقاء في جمعية الخدمات الاجتماعية وأنا واثقة من أنهم سيساعدونها في ذلك.»

ارتجفت ميغ وهي تتنفس بصعوبة قائلة: «إن هذا سيقتلها، والاقامة في ملجأ يرعبها، وهي بإمكانها أن تخدم نفسها بنفسها.»

قالت مارغوت ببرود: «إن الأمر، في هذا، بيدك أنت، ذلك أنه إذا قبلت بالذهاب إلى لانغيدوك فسأقنع أمي بأن طرد المربية من الكوخ سيكون خيانة لذكرى أبيك.»

سألتها ميغ بخيبة أمل: «وهل هذا يغير من الأمر شيئاً؟»

أجابت مارغوت: «بالطبع، فقد كانت مولعة بأبيك جداً، رغم أنها لم تكن تحب المربية وطريقتها في السيطرة، هذا إلى جانب أن كلمتي الآن مسموعة عندها، فأنا أوجهها أينما وكيفما شئت، ذلك لأنها مستميتة كي يكون لها صهر نائب في البرلمان.»

فكرت ميغ عابسة، إن معنى هذا أن تذهب زوجته كيرين وأولاده إلى الجحيم.

تابعت مارغوت بدهاء: «حتى أن في استطاعتي أن اجعلها تكتب شيئاً باسم المربية، هذا إذا ذهبت أنت للمكوث مع خالتي لمدة شهر. إنني بحاجة إلى معونتك، يا ميغ، إذ عليّ أن أبقى هنا لكي استمر بالضغط على ستيفن.»

قالت ميغ ببرود: «إن قمت أنا بهذا الأمر، فلأجل المربية وليس لأساعدك في الحصول على هذا الرجل المتزوج.»

تمطت مارغوت بسرور وهي تقول: «دعي عنك هذا الغرور. فأنت ستذهبين إلى فرنسا لمدة شهر كامل وكل التكاليف مدفوعة. ماذا تريدين غير ذلك؟» وابتسمت راضية وهي تتابع: «كذلك سأعيرك سيارتي لكي تذهبي بها إلى فرنسا. وعليك أن تبدأي بالتمرين على القيادة منذ الآن.»

أطبقت ميغ أسنانها بشدة وهي تقول: «إنني لم أقل بعد إنني سأذهب.»

فارتسمت على شفتي مارغوت ابتسامة الثعلب وهي تقول: «ولكنك ستذهبين، وإلا فإن المربية العجوز المسكينة ستصبح دون مأوى، فالخيار في ذلك يعود إليك.»

وبعد ذلك بأسبوعين، كانت ميغ في طريقها مرغمة إلى جنوب فرنسا.

لم تكن تريد أن ترضخ لهذا، ولكن نظرة منها إلى مربيتها وهي تجول في أنحاء الكوخ سعيدة نشيطة، غافلة عما ينتظرها من أصدقاء السيدة لانغتري، جعلتها تغير رأيها.

والسيدة ايريس لانغتري، نفسها، لم تكن مسرورة بهذه المساومة، ولكنها قبلت بالأمر مرغمة، هي الأخرى.

وتنهدت وهي تقول: «إن مارغوت تستحق السعادة. كما أن ستيفن هو رجل رائع بينما زوجته امرأة لا تعرف سوى الخدمة في بيتها. انه بحاجة إلى امرأة تقف بجانبه وتدفعه إلى الأمام في مهنته السياسية هذه.»

وفكرت ميغ متهكمة في أنه لا عجب إذا كانت البلاد في مثل هذا التدهور، إذا كانت نظرة ستيفن إلى مارغوت تحوي هذا الرجاء. أما بالنسبة لأعمال البيت، فليس ثمة من يمكنه القول إنها تصلح لشيء ما عدا غلي الماء على الأرجح.

تلقت من ايريس لانغتري بعض الملابس الجديدة التي أصرت هذه على دفع ثمنها قائلة تسكتها عن الاحتجاج: «من المفروض أنك بمثابة ابنتي ولهذا، فلا يمكنك أن تسافري بمثل هذه الملابس.»

كذلك كان لون شعرها الجديد ناجحاً بشكل غير متوقع، فقد أصبح أشقر داكناً. ولم تجد الوقت لكي تبكي على عملها في المكتبة والذي زاولته طيلة الثمانية عشر شهراً الماضية، بعد تقاعد صاحب المكتبة. أو تقلق، أثناء انتظارها أن تمر هذه المغامرة الفرنسية بسلام، ذلك أن مشكلاتها الحالية تكفيها.

ودهشت وهي ترى مخدومها، السيد أوتواي يومىء برأسه وهي تخبره بوجهة سفرها، راضياً وهو يقول: «آه، لانغيدوك أرض أغاني التروبادور الشاعرية، والكاثار.»

سألته ميغ: «وما الكاثار؟»

فاجاب: «إنها طائفة دينية باقية من العصور الوسطى، وهي تعتقد أن الحياة بأجمعها آثمة، ولا بد من الاستمرار

في البحث عن النور. إن كل مقاطعات اللانغيدوك كانت غنية ومستقلة عن ملك فرنسا الذي كان يكره رايموند أوف تولوز أكبر أسياد الجنوب ويحسده على ثرائه وجمال وحضارة حياته في الجنوب، فكان أن فكر في اتخاذ الكاثار ذريعة لغزوه ومحاربته وسلبه أملاكه. ولكنك ستعشقين تلك المنطقة. فهي بلاد شاعرية مليئة بالمتناقضات، فترين فيها الضحكات السعيدة الدافئة إلى جانب الدموع. الحب الصادق إلى جانب الكراهية والحقد الذي لا يعرف التسامح. الشمس اللاهبة والعواصف الثائرة عندما تفلت الطبيعة من عقالها.»

وابتسم بخبث وهو يرى الخوف يكسو ملامح ميغ واستطرد بعنف: «ربما في إمكان كل هذا أن ينفض عنك قليلاً هذا الجمود الذي يحيط حياتك رغم صغر سنك.»

قالت باحتجاج: «ولكنني سعيدة بذلك.»

قال: «كلا، إنك راضية فقط... وهذا شيء مختلف تماماً. ولكنني متأكد، يا طفلتي، من أنك لن تكوني نفس الفتاة عند عودتك من لانغيدوك.» وأطلق ضحكة جافة وهو يتابع: «كلا. ليس نفس الفتاة مطلقاً.» وربت على كتفها. «إنني أتنبأ بأنك لن تعودي إلى مجرد قناعتك تلك في حياتك. وستتمتعين بدفء الجنوب كاملاً.»

ولكن ذلك الحر اللاهب، والعرق الذي كان ينضح به جلد ميغ في زحمة السير خارج قطار تولوز، لم يكن لينطبق عليه كلمة، دفء، التي وصف بها مخدومها ذاك، هذه المنطقة الجنوبية. فقد كانت السيارة التي استأجرتها، أشبه بالفرن بينما كانت ماتزال في مستهل رحلتها إلى هاوت أرينياك، فقد وصلت إلى فرنسا مبكرة يومين عن موعدها،

وذلك لكي تمضي بعض الوقت في التفرج قبل أن تستقر بين آل دي بريسّو كمرافقة للسيدة.

كذلك، كانت هذه الفترة تساعدها على تمرين لغتها الفرنسية. فقد كانت متفوقة في هذه اللغة بين تلميذات صفها في المدرسة، كما كانت تحضر دروساً ليلية للتقدم بها. ولكن لم يكن أمامها فرصة لاختبار مهارتها في تلك اللغة، في قصر هاوت أرينياك، حيث أن السيدة مارغريت دي بريسو قد أبلغت أثناء المراسلة، أن مارغوت لا تتكلم الفرنسية. وعندما احتجت ميغ على هذا القرار التعسفي بالإدعاء بأنها لا تحسن الفرنسية، قالت لها مارغوت ببساطة: «هذا شيء يفيدك تماماً إذ بإمكانك الادعاء بعدم الفهم إزاء أي سؤال لا يعجبك.»

فقالت ميغ بمرارة: «لا أريد الادعاء بأي شيء.» فقد كانت تشعر بالذنب إلى درجة بالغة إزاء هذه اللعبة التي تقوم بها. ذلك أنها في سبيلها إلى خداع امرأة مسنة شبه عمياء، وذلك لكي تساعد أختها في العمل على هدم زواج حبيبها، وبالتالي تشريد إمرأة غافلة بريئة مع أولادها.

حتى ادراكها بأن هذا العمل سيعود بالفائدة على المربية إذ ستمتلك الكوخ، هذا الادراك لم يبعث العزاء في نفسها أو يقلل من مبلغ الخسة التي تنتابها في عملها ذاك.

كانت هذه الأفكار تراودها وهي تنقر بأصبعها على عجلة القيادة في انتظار الضوء الأخضر الذي لم يلبث أن ظهر لتتابع سيرها. كانت تتقدم بحذر بالغ، أولاً، لكي تعود نفسها على قوانين السير في هذا البلد الغريب. وثانياً لكي تتعوّد على قيادة هذه السيارة التي وضعت تحت تصرفها.

ولكنها سرعان ما أدركت أنها تسير في طرقات جيدة أقل زحاماً مما اعتادته في انكلترا، ليبعث هذا في نفسها الشعور بالارتياح.

كانت السماء زرقاء صافية، ولكنها، وهي تسير نحو الشرق، لم تلبث أن لمحت في الأفق البعيد سحباً تتراكم بصورة تنذر بالخطر. وفي الوقت الذي توقفت فيه لتبتاع طعاماً للغداء، كانت تلك السحب قد حجبت السماء. وألقت نظرة قلقة على الجو المدلهم، وهي تقفل راجعة إلى سيارتها تحمل بعض السندويتشات وزجاجتي مياه معدنية.

كانت قد صممت على أن تقوم بنزهة في بقعة هادئة، واختارت، لذلك طريقاً بعيداً عن الشوارع العامة لتتمكن من قيادة السيارة على مهل ولكي تتعرف إلى فرنسا الحقيقية.

وبدا لها الآن، وكأنها على وشك أن تتعرف إلى جوّ فرنسا الحقيقي أيضاً. إذ أنه، مع أن الحرارة كانت ماتزال مرتفعة، فقد كانت السحب تنذر بجو عاصف، ولكن، ما أن ابتدأت قطرات المطر تصفع زجاج السيارة الأمامي، حتى تخلت، مكرهة، عن قرارها في تناول طعامها في الهواء الطلق، لتركز اهتمامها على إيجاد مكان تمضي فيه ليلتها. وقد التقت في آخر مدينة مرت بها، بفتاة رقيقة الشعور أرشدتها إلى فندق صغير يدعى الأوبيرج يقوم في نهاية طريق جورج دي بيرون مشيرة إليه بعلامة على الخارطة التي كانت ميغ تحملها.

وجدت نفسها تسير في طريق متعرج تحف به صخور شاهقة. ومالبث الطريق أن أصبح في محاذاة نهر غير عميق

يتدفق فوق الحصى، لتعرف أنها قد وصلت الآن إلى الطريق المقصود الذي يقع الفندق في نهايته.

وعندما اشتد هطول المطر، فكرت فزعة، بأن خير البرّ عاجله، فقد ابتدأ الرعد والبرق الآن، في التناوب. وأطلقت ميغ بعض الشتائم وهي تدير المساحة على الزجاج أمامها والتي لم تجد لها فائدة ملموسة أمام تدفق المطر الذي كانت الريح تصفع به الزجاج، مما جعلها لا تجرؤ على متابعة القيادة في ذلك الطريق غير المستقيم. وهكذا، اتجهت بالسيارة إلى الجانب الصخري من الطريق حيث أوقفتها هناك محتمية به.

من ذا الذي كان يتوقع مثل هذا التغير السريع في الجوّ؟ مع أن السيد أوتواي كان قد حذرها من تقلبات الجو السريعة هذه، منبهاً إياها إلى أن أفضل ما في إمكانها أن تفعله في هذه الحال، هو البقاء في السيارة بدلاً من تعريض نفسها إلى صاعقة البرق.

وشعرت فجأة بالبرد، فتناولت سترتها من المقعد الخلفي تشدها على كتفيها. وألقت نظرة على النهر شعرت معها بقشعريرة باردة. كانت حرارة الجو في انخفاض مطرد. وكانت مياه النهر في ارتفاع حتى أصبحت متدفقة على ضفتيه.

شعرت، بشيء من الفزع، وبأن هذا المكان غير مناسب للوقوف. ولكن، لا بد لها من البقاء حيث هي إلى أن يخف هطول الأمطار على الأقل. ذلك أن العاصفة قد اصبحت الآن فوقها تماماً، كما كان الرعد والبرق متزامنين معها تقريباً. وشعرت ميغ وكأنها تحدق في جدار من الماء. ربما كان من

الأفضل لها لو أنها وصلت في نفس يوم الموعد، فتجد من يستقبلها في المطار كما كانت السيدة دي بريسو قد اقترحت. إذ أن هذا هو الطريق السوي الذي اعتادت هي أن تتبعه أكثر حياتها.

خاطبت نفسها قائلة، لماذا أنت ضجرة إلى هذا الحد، وأين روح المغامرة فيك؟ وتأرجحت السيارة فجأة إثر زوبعة مفاجئة، وارتجفت ميغ بالرغم عنها، لتصرخ رعباً وهي ترى الباب إلى جانبها يفتح بعنف لتمتلىء السيارة بالهواء البارد الرطب.

وظنت، للوهلة الأولى، بأن هذا من فعل العاصفة لترى شبحاً قاتماً متدثراً بمعطف فضفاض، يقف بالباب يحدق فيها، فانكمشت في مقعدها، وهمت بالصراخ مرة أخرى لولا أن الرعب قد أخفى صوتها.

وجاءها صوته يقول بهدوء يخفي انفعالاً حاداً: «لعلك مجنونة تماماً، هل تريدين أن تموتي؟ هيا ابتعدي بهذه السيارة الآن، في هذه اللحظة.»

لم يكن هذا الذي يتكلم، شبحاً صوّرته لها العاصفة، ولكنه كان رجلاً غاضباً. وقد تكلم بالفرنسية وأجابته هي بنفس اللغة بصورة آلية، وقد أخذ قلبها يخفق بمزيج من الراحة والحذر، وهي تقول: «وما الذي أعطاك الحق في أن توجه إليّ الأوامر؟»

فرد عليها بحدة: «إنه حق شخص يعرف هذه البلاد أكثر منك. ذلك أن الوقوف بالسيارة تحت هذه الصخور الشاهقة في حالة طقس كهذا، ينطوي على خطر شديد أيتها الحمقاء الصغيرة. إذ أنه كثيراً ما تحدث انهيارات أرضية، وفي هذه

الحال تدفنين أنت وسيارتك، هيا. تحركي بسرعة.»

ومهما كان مقدار الخشونة في حديثه ذاك، إليها، فانه كان يبدو منطقياً في حديثه، ويعرف تماماً ما يقول. وشعرت ميغ بشيء من الضيق، بأن من الأفضل لها أن تمتثل لنصيحته تلك.

سألته ببرود: «وأين تقترح، إذن، أن أوقف السيارة؟»

فرد عليها عابساً: «ثمة مكان أكثر أماناً على بعد مئتي متر، فاتبعيني وسأريك إياه. هيا بسرعة.»

واختفى بعد أن صفق الباب وراءه، وبعد لحظة رأت ميغ سيارة قاتمة تتجاوز سيارتها بمسافة قريبة. ادارت مفتاح المحرك، وقد انتابها الفزع، ولكن بدلاً من أن يدور المحرك كالمعتاد، ساد صمت عميق ينذر بالسوء.

حاولت ميغ مرة ثانية وثالثة وقد أحست بالذعر ولكن المحرك بقي على عناده.

ومن جانبها جاءها صوت ذلك المتلفح بالمعطف يسألها: «ماذا حدث؟»

فقالت بالانكليزية بصوت منخفض تبدو الخشونة في نبراته: «ما الذي تراه أمامك أيها الثرثار، إن محرك السيارة لا يدور.» وأخذت تفتش في ذاكرتها عن كلمات فرنسية أكثر رقة.

فقال: «إنك إذن انكليزية. كان يجب أن أتكهن بذلك.» وبدت في لهجته نبرة ازدراء. وتصلب جسد ميغ غيظاً، إنه إذن، يعرف لغتين. وتوردت وجنتيها وهي تتذكر لهجتها الفظة التي تشبه لهجة تلميذات المدارس.

وسألها: «ما هي مشكلة السيارة الآن؟ هل من عادتها أن تسبب لك مضايقات؟»

فأجابت بضجر: «لقد استأجرتها هذا النهار فقط، ولكن، ها هوذا المحرك يبدو كالميت. ربما دخلت المياه في المحرك.»

تمتم بكلمات لم تشأ ميغ أن تسمعها، ثم قال بلهجة آمرة: «أتركيها، إذن، هنا، وتعالي معي.»

قالت محتجة: «ولكن لا يمكنني أن أتركها هنا، فهي ليست ملكي، ثم انني...» وترددت برهة، ثم تابعت تقول: «إنني لا أعرف أي نوع من أبناء آدم أنت!»

قال بلهجة لاذعة: «حسناً، أمكثي هنا يا آنسة، فبقاؤك هنا فيه ما يخيف، أكثر مما لو قبلت ما أقدمه إليك من مساعدة. والآن، أخرجي من السيارة قبل أن يغرقنا المطر نحن الاثنين.»

أطاعته ميغ مكرهة وقد جفلت للمطر الذي بلل حذاءها وجوربها تماماً. وكان الوصول إلى سيارته أشبه ما يكون بعبور نهر ضحل. لا بد أن يبللها المطر تماماً قبل ان تجتاز مسافة مترين فقط. وفكرت باكتئاب في ما عسى أن تكون ردة الفعل عند السيدة دي بريسو في ما لو وصلت مرافقتها الجديدة وهي مصابة بالتهاب رئوي.

وسمعت بجانبها آهة تدل على نفاد صبر، لترى نفسها وقد لفها معه بالمعطف الذي يرتديه، ليقودها بعد ذلك، وكأنه يحملها حملاً إلى سيارته، وأفعمت أنفها رائحة عطره الأخاذة التي تفوح منه.

وعندما دفعها بخشونة إلى المقعد الأمامي في سيارته، شهقت وهي تقول ساخرة: «شكراً.»

قال وهو يجلس إلى عجلة القيادة: «لنبتعد من هنا، فهذا المكان معروف بخطورته.»

وما ان اتم كلامه، حتى سمعت صوتاً أشبه بأنّة عميقة تبعتها ضجة غريبة. ادارت برأسها إلى الخلف تنظر إلى حيث كانت واقفة، لترى، غير مصدقة عينيها وقد تملكها الرعب، شجرة ساقطة من الأعالي وقد اجتثت من جذورها، لتستقر على سيارتها الرينو محدثة ضجة مفزعة سرعان ما تبعها سيل من التراب والحجارة إنهال على السيارة ليرتد بعدها قافزاً إلى الطريق ممثلاً نموذجاً مصغراً لسلسلة من الانفجارات. ووصلت بعض تلك الاحجار إلى السيارة الثانية التي جلسا فيها مصعوقين دون حراك.

تبع ذلك صمت عميق حيث أن المطر قد توقف الآن وكأنه قد اكتفى تماماً بما حدث.

الفصل الثاني

كان مرافق ميغ هو الذي اخترق هذا الصمت قائلاً بهدوء وهو يهز كتفيه: «هكذا إذن.»

تنفست ميغ وهي تقول: «شكراً... شكراً لك.»

وكان الدمار في سيارتها ينحصر اكثره في ناحية السائق. فقد كان السقف المحطم قد التصق بالمقعد كما تهشمت الواجهة الزجاجية بفرع كبير من تلك الشجرة.

وفي ذلك المكان بالذات، كانت هي، منذ لحظة واحدة، جالسة شاعرة بالأمان التام. ولو لم يأت هو، في تلك اللحظة، ليرغمها على ترك مكانها ذاك... ولم يستطع عقلها، الذي أذهلته الصدمة، متابعة التفكير في ما كان سيحدث لو تمسكت بعنادها ولم تطعه في ذلك، وحاولت أن تتكلم... أن تشكره بصورة صحيحة هذه المرة، ولكن، بدلاً من ذلك، وجدت نفسها تنخرط في البكاء.

وهمهم هو بشيء ما، بعدما جلس قربها، رامياً بالمعطف إلى المقعد الخلفي، وهو يتناول زجاجة تحوي شراباً منعشاً، فتحها ثم قدمها إليها قائلاً: «هاك اشربي هذا.» ثم تناول علبة المناديل الورقية يقدمها إليها، لتتناول منها واحدة تغطي بها عينيها وهي تنشج قائلة: «سيارتي، سيارتي...»

حاول ان يهدأ من روعها، فقال: «عندما استأجرت السيارة، أخذت بها بطاقة تأمين مما يخول لك أخذ بديل، لها، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى حياتك.»

WWW.REWITY.COM

قالت وهي تقاوم دموعها وقد ابتدأت تتمالك نفسها: «معك حق.»

وعندما هدأت تماماً، واستطاعت أن تتكلم، قالت: «إن كل أشيائي كانت في صندوق السيارة. إنني أعرف أن من الحماقة أن أقول هذا...»

فقال وهو يأخذ مفاتيح سيارتها من يدها المتهالكة: «سأحضرها إليك.»

تعلقت بذراعه قائلة: «كلا. لا تجازف... دعها.»

قال وقد تحولت لهجته إلى الرقة: «لا بأس، أنظري إلى صندوق السيارة فهو سالم تقريباً.»

قالت: «ولكن ربما يحدث انهيار آخر للأرض.»

ذلك أن البرق والرعد كانا لا يزالان يتناوبان في السماء فتهتز تلك الأنحاء. وتخيلت ميغ انهياراً صخرياً آخر ينهال على هذا الرجل كما حدث بالسيارة.

ولأول مرة، وجدت نفسها تحدق فيه للمرة الأولى، في الضوء المنبعث من السيارة. كانت تدرك انه طويل القامة، وقد سبق وأخذت فكرة عن مبلغ قوته أثناء اندفاعهما السريع ذاك من سيارتها. ولكنها ترى الآن أنه كان شاباً فتياً في بداية الثلاثينات من عمره، رغم انها لم تكن خبيرة بمثل هذا التقدير.

ورأت شعراً كثيفاً أسود منظماً، ووجهاً نحيلاً ذا خطوط حول الفم والأنف والذقن توحي بالقوة والكبرياء. هذا إلى عينين قاتمتين عميقتين تحت جفنين ثقيلين.

هز كتفيه مرة أخرى، وهو يقول: «أظن أن الأسوأ في ما يمكن أن يحدث، قد مر وانتهى.»

وارتسمت على شفتيه ابتسامة جانبية وهو يتابع: «هذا إلى أنني أحمل طلاسم سحرية.»

ربما كان هذا صحيحاً. وجلست لا تجرؤ على النظر خلفها، متوقعة، بين لحظة وأخرى، أن تسمع صرخة ألم. ولكن، لم يكن هناك سوى اندفاع الماء إلى النهر المتدفق المتعاظم شيئاً فشيئاً. وفي ناحية قريبة، تعالت زقزقة طير تعلن انتهاء العاصفة.

وتخيلت انه غاب اكثر مما ينبغي، فأدارت رأسها لتراه واقفاً عند مؤخرة سيارتها الرينو وقد تصلب جسده وكأنه استحال إلى صخرة هو الآخر. وفكرت في أنه ربما كان صندوق السيارة من التهشم بحيث لم يستطع فتحه، ولكنها كانت مخطئة، إذ أنه توجه حالاً إلى سيارته الستروان، وقد حمل حقيبتي سفر في كلتا يديه. لتسمع بعد ذلك صوت ارتطامهما وهو يضعهما في صندوق سيارته.

وعندما عاد اليها، بدا مقطباً حاجبيه مستغرقاً في التفكير. وانتابها شعور بأنه ربما كان غاضباً من شيء ما يحاول اخفاءه.

ربما أدرك الآن، أن شهامته هذه شكلت عليه عبئاً مؤقتاً بالنسبة إلى مسافر غير مرغوب فيه، على الأقل.

وانتابها الأسف، فهي لم تكن تلومه لامتعاضه الذي أصبح من واجبها، الآن، التسرية عنه.

قالت بحذر: «لقد كنت معي في منتهى الشهامة، وأنا أكره أن أثقل عليك أكثر من هذا. ولكنني في حاجة إلى أن أصل إلى فندق الأوبرج دي سورس دي بيرون حيث بامكاني الحصول على غرفة هناك، وسوف أتدبر امر السيارة.»

كان يبدو مستغرقاً في التفكير، ولكنه، عندما سمع كلامها هذا، أدار رأسه اليها يقول بشيء من الدهشة: «هل سبق وحجزت غرفة في الأوبرج؟»

فقالت: «حسناً، في الحقيقة كلا، ولكن إنه المكان الذي كنت ذاهبة إليه قبل حدوث العاصفة تلك. فقد أرشدوني إليه.»

قال: «إنه مكان محبوب عند السواح. وكان من الأفضل لو كنت حجزت غرفة مقدماً.» وازداد تقطيب جبينه وهو يستطرد: «أليس عندك خطة بديلة لهذه؟»

أجابت: «ليس ثمة ما هو مؤكد.» وسكتت. فلم يكن في استطاعتها أن تطلب منه أن يأخذها كل ذلك الطريق إلى هاوت أرينياك. لقد كان هذا الذي حدث لها، نكسة قوية أفشلت مخططها، ولكنها كانت تشعر بالخوف من أن تصل إلى القصر مبكرة عن الموعد دقيقة واحدة. واستطردت وقد بدت على شفتيها شبح ابتسامة: «عليّ أن أجازف لاحتمال أن أجد غرفة خالية.»

ألقى عليها نظرة أخرى طويلة، ثم قال بلطف: «ليس من الحكمة دوماً، يا آنسة، أن تجازفي، خاصة حين تكونين بعيدة عن موطنك.»

كان في صوته نبرة غريبة تتضمن نوعاً من التحذير الذي يقرب من الوعيد، كما تراءى لها، جعل رعشة تشمل جسدها بأكمله. أم لعلها مجرد تصورات نتيجة للصدمة التي أصابتها؟

لا بد أن الأمر كان كذلك، لأنه ابتسم لها فجأة، وكانت ابتسامة فاتنة خففت من صلابة فمه المتكبر ذاك.

لم يكن وسيماً بكل معنى الكلمة، كما بدا لميغ، ولكنه كان ذا جاذبية مخيفة. كان نوعاً من الرجال لم تحلم بمقابلته من قبل. انها تتمنى لو وصلت بسرعة إلى الفندق كي لا تراه بعد ذلك أبداً، ذلك لأنها، بالرغم من روح المغامرة التي تشعر بها، شعرت أن هذا الرجل يمثل خطراً أكبر من أي خطر يمثله أي انهيار أرضي أو صخري.

التوت ابتسامته قليلاً، وكأنما شعر بما يدور في خلدها، مما أشعره بالسخرية، ليقول بعد ذلك وهو يدير المحرك: «هيا بنا نذهب.»

ولم تكن الرحلة سارة مع أن المطر قد توقف، وابتعدت العاصفة إلى حيث كانت تدمدم من بعيد، لتسمح للشمس الباهتة أن تتقدم، بظهورها، بالاعتذار لما حدث.

كان مرافقها هادئاً قليل الكلام، ولكن ربما كان ذلك كما تصورت ميغ، لتركيزه على القيادة في هذا الطريق الصعب الذي كان ممتلئاً بالحطام، فقد كانا يضطران إلى التوقف مراراً لكي يزيحا من الطريق ما يكون هناك من أحجار وأغصان أشجار تعترضهما.

قالت له أثناء عودته إلى السيارة، وهو يمسح يديه بمنطاله الجينز: «هل الطريق بهذا السوء على الدوام؟»

فأجابها وهو يلقي إليها بنظرة جانبية، بينما كان يدير محرك السيارة: «لقد شاهدت طرقاً أسوأ من هذه. لقد كان هذا ترحيباً بأولى زياراتك إلى فرنسا.»

قالت عابسة: «وكيف علمت بأنها أولى زياراتي لفرنسا؟ أذلك من رداءة لغتي الفرنسية؟»

أجاب وهو يهز كتفيه: «ليس لدي أية فكرة وانما خمنت

ذلك. كما أن لغتك الفرنسية ممتازة. وهذا غريب.» ونطق الجملة الأخيرة بجفاء.

سألته: «لماذا تقول ذلك؟»

أجاب بعد صمت قصير: «لأن الكثير من رجال بلدك لا يهتمون بتعلم لغتنا. أنهم يظنون أنهم إذا هم رفعوا صوتهم قليلاً، وأبطأوا بالكلام فسنفهم ما يقولون.»

أومأت ميغ برأسها آسفة، إذ سبق وسمعت نفس القول من المعلمة التي كانت تدرسهم اللغة الفرنسية في المعهد الليلي. وهي سيدة فرنسية متزوجة من انكليزي.

وقالت: «أظن أن السبب في ذلك يعود لشعورهم بأنهم سكان جزر، فهم لا يشعرون بأنفسهم جزءاً من القارة الأوروبية. وقد تتغير نظرتهم هذه إذا ماتم انشاء نفق القنال في بحر المانش.»

أجاب: «ربما.»

تبع ذلك صمت آخر. كان يقود السيارة بمهارة فائقة، كما لاحظت ميغ، وكانت يداه الرشيقتان تديران عجلة القيادة دون أي مجهود.

كانت ملابسه بسيطة، وبنطاله الجينز ذات قصة جيدة، وكانت أكمام قميصه الأبيض مثنية تبرز عضلات ساعديه. والشيء الوحيد الذي كان يتزين به هو ساعة ذهبية.

لم تستطع ميغ، وهي تتأمله من تحت أهدابها، أن تخمن الفئة التي ينتمي اليها، مهنية كانت أم اجتماعية، ولكنها ما لبثت أن تذكرت قلة خبرتها في ذلك وأنها، في ما يختص بالرجال، كانت عديمة الخبرة تماماً، ما عدا السيد أوتواي صاحب المكتبة، وتيم هانزبي الذي كان يجمع كتب التاريخ

العسكري، والذي دعاها، ذات مرة، للذهاب معه إلى لندن في زيارة إلى المتحف العسكري الأمبراطوري.

وقد استمتعت ميغ بزيارة ذلك المتحف اكثر مما توقعت. ولكن تيم، حيث أنه كان وحيد والدته الأرملة المتعلقة به، لم يكن ليصلح اكثر من مجرد صديق عادي. فقد كان مايزال يعيش مع والدته. وقد شعرت ميغ، حينذاك، بالشفقة على الفتاة التي تقع في حبه، ذلك أن والدته كانت مصممة على أن تحتفظ بحياتها تلك معه كما هي دون تغيير. ومع أن مرافقها الآن لم يكن يبدو عليه أنه مرتبط بأية امرأة، الا أن ميغ اعتبرت أن المظاهر قد تكون خداعة، فقد يكون مرتبطاً بامرأة سليطة اللسان وفوج من الأطفال، وسيخبرهم هذه الليلة، بعد العشاء، كيف انقذ سائحة انكليزية وحيدة من العاصفة، جاعلاً مما حدث مجرد قصة مسلية.

وعندما تنفرد به زوجته، في ما بعد، ستسأله، كيف تراها تبدو تلك الفتاة الانكليزية؟ وسيبتسم هو ويقول: انها مجرد فتاة عادية، فأنا لم أكد ألحظها...

عندما نظر إليها، ادركت ميغ ان آهة خفيفة كانت قد أفلتت منها، فأسرعت تقول: «هل ما زالت الطريق أمامنا طويلة إلى الأوبرج.»

أجاب: «حوالي الكيلو متر الواحد. هل تجدين الرحلة مملّة؟»

أسرعت تقول: «آه، كلا. ولكنني أخشى ان يكون لديك عمل تود القيام به. انني أشعر بنفسي مزعجة.»

أجاب: «أنت مخطئة، فأنا مسرور بتقديم هذه الخدمة لك. لأن هذا هو طريقي، فأنا سأمر بالأوبرج على كل حال،

وهكذا، الفائدة تعود علينا نحن الاثنين. ان اسمي هو جيروم مونتكورت. هل يمكنني أن أعرف اسمك أنت أيضاً؟»

فتحت فاها لتقول ميغ لانغتري ولكنها عادت فترددت، ولم تقل شيئاً. فقد جاءت إلى هنا لتكون مارغوت. وساورها الشعور بالذنب اذ وجدت نفسها تكاد تنسى ذلك. ولكن، بما أن الخداع لا بد أن يبدأ على كل حال، فماذا لا تبدأ به مع هذا الغريب ما دامت لن تراه مرة أخرى؟ ولكنها، في نفس الوقت، أدركها الرعب من أن تدلي بتلك الكذبة المحضة. وفكرت، وهي تطلق آهة، انها ليست من النوع الذي يجيد حبك المؤامرات.

وأخيراً، قالت بابتسامة مصطنعة: «دعنا نقل مارغريت فقط.» وفكرت في أن هذه نصف الحقيقة على كل حال، وقد لا تحتاج علاقتها معه إلى أكثر من هذا.

قال بلطف: «إنه إسم زهرة، وهو أيضاً اسم ملكة فرنسية مشهورة. ربما قد سمعت باسم الملكة مارغوت واسمها الحقيقي مارغريت دي فالوا والتي تزوجت من هنري أوف نافار؟ وكانت من أجمل نساء عصرها. ويسمونها السيدة المغامرة.»

تحركت ميغ بقلق وهي تسمع الاسم، ثم سألته: «ما معنى هذا اللقب؟»

هز كتفيه قائلاً: «معناه أنها كانت تحب المغامرات العاطفية، خصوصاً مع رجال غير زوجها. لقد اكتسبت سمعة سيئة جداً.»

قالت: «لا أظنها كانت سعيدة مع زوجها هنري اوف نافار إذن؟»

فضحك وهو يجيب: «آه، ولكنه هو أيضاً لم يكن خالياً من العيوب. وربما كان هذا هو السبب في أن فرنسا مازالت تذكره باعجاب وتسميه الرجل الشجاع.»

قالت ميغ متسائلة: «وطبعاً، كان الزواج في تلك الأيام، يقوم على المصلحة فقط. ولهذا، أظن أن الأزواج كان لهم عذرهم في ذلك ماداموا قد ارتبطوا بغير حب.»

قال بسخرية: «وما رأيك بالنسبة للزوج إذا كان مرتبطاً بهذا الذي نسميه حباً؟»

قالت بحزم: «إذن فلا عذر أبداً للأزواج في الخروج على الرابطة الزوجية.»

قال: «إن كلامك هذا يدهشني.»

أجفلت قليلاً وسألته: «لماذا؟»

فتردد جيروم لحظة، ثم قال وهو يرفع كتفه: «لأن هذا قد أصبح رأياً قديماً ضد المفهوم الحديث. أما مفهوم العصر فهو، زواج سهل يتبعه طلاق سهل.»

هزت ميغ رأسها قائلة: «لا أصدق هذا، فالطلاق ليس سهلاً أبداً. ذلك أن أحد الزوجين سيصيبه الضرر البالغ، وخصوصاً إذا كان هناك أولاد.»

ألقى عليها نظرة سريعة وقال: «لم أتوقع أن التقي بفتاة مثالية.»

قالت برزانة: «إنك، إذن، لم تتوقع التعرف إلي أبداً.» ابتسم مرة اخرى، فشعرت بجاذبيته تتغلغل في نفسها برقة فائقة مع ابتسامته تلك. وقال: «ألا تظنين ان القدر، وليس العاصفة، هو ما جمع بيننا؟»

أطلقت ميغ ضحكة قصيرة، شاعرة برجفة خفيفة في

صدرها، وهي تقول: «إننا، في انكلترا، يا سيدي، اعتدنا على توجيه اللوم إلى الأحوال الجوية في كل شيء.»

ضحك هو أيضاً، وقال: «وفي فرنسا، يا آنستي، زهرة المارغريت تميل دوماً نحو الشمس. تذكري هذا.» وسكت لحظة ثم عاد يقول: «هو ذاك فندق الأوبرج أصبح امامنا.»

وفجأة، شعرت بشيء من الخيبة تكتنفها. ماذا جرى لعقلها لتدع رجلاً غريباً يؤثر عليها بهذا الشكل؟ حقاً انه انقذها وأنها ستبقى مدينة له بهذا الجميل على الدوام، ولكنها لم تكن متأكدة من أنه أعجبها. فقد كان شخصاً لا يمكن التنبؤ بسلوكه. ألا يكفيها ما هي فيه من مشكلات، حتى تضيف اليها هذا أيضاً؟

ربما كان من طبعه العبث ومغازلة أية فتاة يصادفها في طريقه. وهي غير معتادة على هذا النوع من الرجال.

كان فندق الأوبرج دي سورس دي بيرون مبنى مريحاً متشعب البناء. وربما كان سابقاً منزلاً في مزرعة وقد قام في خلفية باحة محاطة بسور.

دخل جيروم في ممر مسقوف إلى حيث الباحة تلك ثم توقف. واستقامت ميغ في جلستها، ثم مدت اليه يدها باسمة وهي تقول: «حسناً، وداعاً، مع شكري الجزيل.»

قال وقد بانت السخرية على شفتيه: «أراك متلهفة إلى التخلص مني.»

أسرعت تقول: «آه، كلا، ليس الأمر هكذا. ولكنني أخذت من وقتك الكثير.»

قال وهو يترك السيارة: «يجب أن تسمحي لي بتقدير ذلك بنفسي.» ودار حول السيارة يفتح لها الباب يساعدها على

النزول، وهو يتابع: «اذهبي وأساليهم إذا كان ثمة غرفة خالية، وسأحضر لك امتعتك.»

ومن خلال باب زجاجي، دخلت إلى قاعة الاستقبال مسقوفة بالقرميد، لتستقبلها الموظفة المسؤولة بغاية الترحيب، قائلة إن ثمة غرفة فعلاً، وسيكون من دواعي سرورها أن تريها للآنسة، ولكن ثمة امر مزعج جداً وهو أن العاصفة قد تسببت في قطع التيار الكهربائي، وإلى ان يصلح هذا الخلل، فان هنالك الشموع والقناديل. أما بالنسبة إلى غرفة الطعام...

وأشارت الموظفة المسؤولة بيدها بيأس.

وقال جيروم مونتكورت من فوق كتف ميغ: «هذا لا يهم. ان الآنسة ستتناول العشاء معي.»

وشعرت ميغ بوجنتيها تتوهجان وهي ترى المرأة ترفع حاجبيها وهي تظهر موافقة ماكرة على هذا الحل، بوجه عام، وعلى شخصية جيروم بوجه خاص. ثم تطلب راجية من السيد ان يتكرم بنقل امتعة الآنسة إلى الغرفة حيث أن المكلف بذلك مشغول تماماً بملء القناديل، وهي لن تنسى هذا الجميل منه إلى الأبد.

ابتسم لها جيروم قائلاً: «بكل سرور. ولكنني أحب أن أعرف أولاً ما إذا كانت العاصفة لم تضر بالأسلاك الهاتفية، إذ يجب أن نبلغ عن الحادث.»

ولما أجابت بأن الهاتف غير معطل، رفع جيروم حاجبه مخاطباً ميغ: «اترضين بأن اتصل بالمسؤولين لابلاغهم عن الحادث وأنهي الاجراءات الرسمية بالنسبة للسيارة؟ إن هذا سيسهل الأمور بالنسبة اليك مهما كانت لغتك الفرنسية جيدة و...»

www.rewity.com

شكرته ميغ بخجل، ثم صعدت مع الموظفة عبر سلم خشبي عريض يقود إلى خلف المبنى حيث غرفتها.

كان السقف منخفضاً والأرض غير مستوية ولكن الأثاث كان ملمعاً بالدهان، والسرير الواسع مفروشاً بملاءات ناصعة البياض.

وفي زاوية الغرفة، يقوم باب يقود إلى حمام لا يكبر كثيراً عن خزانة الثياب. وكانت النافذة المربعة الصغيرة تبدو عميقة في الجدار الحجري السميك، وكانت مفتوحة لتسمح للشمس بالدخول. وكان الهواء مايزال بارداً مشبعاً برائحة زهر الخزامى. وبينما أخذت ميغ تتنفس بعمق، أومأت الموظفة برأسها راضية وهي تتلفت حولها، ثم خرجت عائدة إلى عملها بعد ما أغلقت الباب خلفها.

وقفت ميغ أمام النافذة. لقد كان يوماً حافلاً وإن يكن لم ينته بعد... إلا إذا شاءت هي، طبعاً، ذلك. ولكنها لم تكن متأكدة من مشاعرها بالنسبة لهذا الأمر.

وفكرت في شيء من الارتباك، بأن أشياء كهذه لا تحدث، في العادة، لها، وأن طبيعة شعورها قد تغيرت. إن من المفروض انها مارغوت فهل تراها أخذت حياتها كما أخذت اسمها؟ وتساءلت، هل بمقدورها ان تسلبها ذلك؟

وسمعت صوت الباب يفتح، وجيروم يدخل بأمتعتها. وابتدأ قلبها يخفق، وجف فمها.

قال وهو يرفع الحقيبتين ليضعهما فوق الحامل الخشبي المخصص لذلك: «سترسل الشركة اليك سيارة ثانية صباح الغد. انما سيكون عليك ان تضعي تقريراً بالحادث. وأنا ساكون شاهداً على الحادث، وبهذا تنتفي أية صعوبة.»

وبقيت مولية ظهرها اليه ثم قالت: «انني... انني شاكرة جداً.»

فقال: «هل انت شاكرة إلى درجة تقبلين معها دعوتي إلى العشاء هذه الليلة؟» كان واقفاً خلفها مباشرة.

كانت تحدق في المنظر الخارجي وكأنما كانت تريد ان تحفره في ذاكرتها. كانت الأرض خلف سور حديقة الفندق الصغيرة، تعلو بصخورها مما يشكل منظراً برياً مثيراً، تنتشر في أنحائه مجموعات من الأشجار. وكان ثمة جدول ينساب بين مجموعتين من الصخور لكي ينحدر، بعد ذلك، بشكل شلال صغير. وكانت على جانبيه تقوم نباتات داكنة الخضرة.

قال جيروم من فوق كتفها: «انه نبع بيرون.» أومأت برأسها وهي ترتجف. وعاد يقول بعد فترة صمت: «انك، بالطبع، غير مجبرة على أن تقبلي دعوتي للعشاء.»

وكانت هي تعرف ذلك. تعرف أيضاً أن رفض هذه الدعوة بأدب وابتهاج ظاهرين، انما هو افضل واكثر اماناً.

ولكن، بينما كانت تستدير لكي تجيبه، لمحت انعكاس صورته في زجاج مصراع النافذة، كان وجهه قاتماً حذراً وفمه مطبقاً بحزم، شهقت وأدارت رأسها بحدة. ولكن، لا بد أن ما بدا على وجهه كان من تأثير الأضواء، لأنه كان ينظر إليها ببساطة وابتسامة شبه ساخرة.

قال بلطف: «امنحيني هذا السرور، يا مارغريت. هل يمكنني أن أعود اليك حوالي الساعة الثامنة؟»

أجابت: «نعم. إنني أود ذلك.»

وعندما اصبحت وحدها في الغرفة، أخذت تتساءل عما إذا كان ما قالته صحيحاً حقاً.

الفصل الثالث

استمتعت ميغ بدوش طويل دافىء، لتمضي بعد ذلك وقتاً لا بأس به في اختيار ثوب تلبسه لهذا المساء، وفي النهاية، استقر رأيها على ثوب بسيط عسليّ اللون ذي تنورة واسعة. ووضعت في أذنيها قرطين ذهبيين، ثم نثرت على جسدها عطرها المفضل من روائح نينا ريتشي.

وقفت تتأمل مظهرها في المرآة، مقطبة الجبين، ابتداء من شعرها المنسدل على كتفيها وعينيها العسليتين الواسعتين، إلى قدميها الرشيقتين في النعل الخفيف ذي الأربطة، والبرونزي اللون، ثم هزت رأسها وهي تفكر في أنها تبدو غريبة عن ذاتها... وأنها أشبه ما تكون بالمرأة العجوز المذكورة في أغاني الأطفال.

شعرت بالاحباط وهي تفكر في أن جيروم مونتكورت لو كان قد جاء إلى المكتبة حيث كانت تعمل طوال ثمانية عشر شهراً الماضية، ربما ما كان ليوليها أي اهتمام، إنها ما زالت لا تعرف لماذا قبلت دعوته هذه إلى العشاء، فهذه لا تبدو لها خطوة حكيمة مطلقاً. ذلك أنها لا تعلم عنه شيئاً ما عدا اسمه الذي قد يكون مزيفاً، على كل حال.

انتابها الضجر، أخيراً، من كل هذه الوساوس، ألا يمكن ان تكون مخاوفها، تلك من أن يكون مخادعاً، ناشئة عن أنها هي نفسها تقوم بدور مخادع؟ إنها لا تنكر حماسه الفائق في تقديم المساعدة لها، ولكن ألا يمكن ان تكون هذه ناحية

من شخصيته؟ وتذكرت ذلك التعبير الجامد المخيف الذي سبق ولمحته على وجهه المنعكس في زجاج النافذة، وقبل ذلك في السيارة حين شعرت، للحظة وكأن غضبه يمتد إليها كشيء حقيقي تماماً.

ربما كان من أولئك الأشخاص الذين يتبدل مزاجهم بسرعة... وربما، وهذا أكثر احتمالاً، كان هذا كله مجرد تخيلات منها. وفكرت وهي تتحوّل عن المرآة، في أنها لم تعد تعرف شيئاً، ولكن هذه الدعوة قد حصلت بحضور الموظفة المسؤولة، وهذا يجعلها فوق مستوى أية شبهة، وبعد، انها على الأقل، لن تتعشى وحدها في أول ليلة لها هنا في اللانغيدوك. وتملكها، لذلك شعور بالبهجة.

حملت حقيبتها اليدوية وكتاباً عن الكاثار كان السيد أوتواي قد قدّمه إليها عندما ودعته، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل لتنتظره. وفي قاعة الاستقبال، كانت الموظفة مستغرقة في جدل حام في الهاتف مع واحد سيىء الحظ من ممثلي شركة الكهرباء. ولكنها ابتسمت لميغ مشيرة إليها بأن تذهب إلى باحة الفندق.

كانت الشمس قد عادت، بكل قوتها وتألقها، لتغرق الكائنات بفيض أشعتها الذهبية، وجلست ميغ إلى إحدى تلك الطاولات الحديدية المزخرفة المنتشرة في الباحة، ترشف كوباً من العصير وتقرأ في الكتاب.

لم يكن من السهل، في هذه الأمسية الرائعة، أن تركز ذهنها في ما تقرأه، كما انه مما يدعو للاكتئاب أيضاً، أن الكاثار كانوا يعتقدون ان الجنس البشري وكل شيء آخر هو مكوّن في جوهره، من الإثم. ولكي يتجنبوا اللعنة اتبعوا

نظاماً صارماً من الصلاة والصوم والامتناع عن الكحول بما في ذلك الامتناع عن أكل اللحوم. كما كان يدعون ايضاً إلى العزوبية دون الزواج.

وفكرت ميغ في أنه لابد أن الغالبية من أتباع هذا الدين لا يتبعون أوامر دينهم تماماً، وإلا لانقطع نسلهم منذ أجيال، ومن وجهة نظر العصر، يبدو دينهم غريباً أكثر منه خطراً، وبعد فإن الجيوش قد أرسلت لتمحوهم عن وجه الأرض، تماماً كما تُضرب الذباب بمطرقة ثقيلة.

أدركت أن جيروم قد وصل حتى قبل ان يسقط ظله على صفحة الكتاب التي كانت تقرأها. فقد انتبهت إلى حركة حول الطاولات المجاورة، ورفع النساء لحواجبهن وتمتماتهن وهن يدرن رؤوسهن لكي ينظرن إليه أثناء عبوره الباحة.

قال لها بالفرنسية: «مساء الخير.» وكان يرتدي بنطالاً عاجي اللون وقميصاً كستنائياً مفتوحاً عند العنق. وكانت غرته السوداء الكثيفة العاصية فوق جبينه قد نظمت نوعاً ما.

وعندما ردّت عليه التحية، خطر لها ان غرّته المتمردة تلك قد تكون هي مفتاح اللغز في شخصيته. وأن تحت هذه الملابس الغالية، والسلوك المتمدن، تكمن نزعة إلى العنف تنتظر لحظة الانفجار. وتساءلت عما إذا كان فناناً، فلا بد أنه ناجح جداً. إذ ان ساعته وسيارته، وكل شيء يتعلق به يدل على الثراء.

ولم يبد عليه أنه لاحظ شيئاً من الاهتمام الذي أثاره قدومه، وهو يجذب كرسياً ليجلس عليه، مشيراً إلى النادل

لكي يحضر له الشراب. وأعجبها منه عدم انتباهه إلى مقدار جاذبيته. فقد اعترفت ميغ، بينها وبين نفسها، أنها، لأول مرة في حياتها، تواجه رجلاً تطغى الجاذبية المتدفقة منه على أية وسامة أو جمال مظهر. ولم تعرف كيف تتعامل مع ذلك.

قال: «إنك تبدين في منتهى الجد، أرجو أن لا تكون ثمة صدمة ما زالت في نفسك مما سبق وحدث.»

فهزت رأسها نفياً وهي تقول باشمئزاز: «كلا، وإنما أفكر في ظلم الانسان للإنسان.»

فألقى نظرة على الكتاب الذي في يدها وهو يقول: «انها أفكار حزينة بالنسبة لأمسية مثل هذه.» ورفع حاجبيه وهو يقرأ عنوان الكتاب: «بلاد الكائار. هل تهتمين بقراءة مثل هذه المواضيع؟»

فقالت وهي ترفع ذقنها متحدية: «ولِمَ لا؟» وتساءلت باستياء، أتراه يظنها غبية لمجرد تركها لقضية سيارتها تحت سلطته؟

وأخذ يتأملها فترة طويلة وعلى وجهه تعبير غامض. وما لبث ان هز كتفيه قائلاً: «حسب قولك، لِمَ لا؟ إنك مخلوقة مليئة بالمفاجآت، يا مارغريت.»

فقالت: «ليس أنا فقط. إن كلاً منا لا يعرف شيئاً عن الآخر.»

قال برقة: «هذه الليلة، إذن، ستكون رحلة استكشافية.» ربما كان يسيطر على السيد مونتكورت فكرة تأثيره على النساء، فأصبح مطمئناً إلى قدرته على إغرائها بسهولة؟ وربما يعتبر ذلك ثمناً لمساعدته تلك لها. حسناً، ليس عليه

ان يتوقع شيئاً... كانت عابسة وهي تفكر في ذلك بصمت.

وفكرت ميغ في أن مارغوت كانت، بلا شك، ستستمتع بهذه اللعبة جداً لو كانت مكانها، فتتقدم، وتتأخر، وتقدم وعوداً كاذبة، وفي النهاية، إما أن تبتعد نهائياً، وإما ان تبقى... حسبما تشاء.

وربما لا ينتج أي ضرر في ما لو زاولت هي هذه اللعبة لهذه الليلة فقط، أو ربما تتعلم بعض قواعدها. وفكرت في أنه ربما هذه هي فرصتها لكي تتعلم كيف تعيش ضمن الخطر!

وفرغ جيروم مونتكورت من احتساء شرابه، ثم نظر إلى كأسها الفارغ وسألها: «هل نذهب، أرجو ان تكون مغامراتك هذا النهار قد منحتك شيئاً من الشهية.»

أشرق وجهها بالابتسام وقالت وهي تدفع كرسيها إلى الخلف ثم تقف منتصبة: «إنها أولى تجاربي مع الطعام الفرنسي، ولا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك.»

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب، بلونها القرمزي الأخاذ، عندما قاد السيارة خارجين من الوادي.

ومالت ميغ برأسها نحو الشمس وهي تهتف: «ما أروع هذا، سيكون نهار غد رائعاً.»

ابتسم وقال يغيظها: «هل ستحدث عواصف أخرى؟»

هزت كتفيها قائلة: «أرجو ان لا يحدث ذلك.»

قال: «لقد كان حظك سيئاً، ذلك ان العواصف، عادة، تحدث في الليالي. وأحياناً، أثناء قيادتك للسيارة، ترين البرق يتلاعب حول التلال مشبهاً أضواء مسرح صامت. وفجأة، تُقتلع شجرة من جذورها، ليجن بعد ذلك الكون، كما سبق ورأيت بنفسك.»

قالت بأسى: «لقد رأيت. أليس عندك شيء أفضل من ذلك يمكن للسائح ان يراه؟»

أجاب: «ربما سيناسبك الفجر أكثر، حيث ذلك الخط من الضوء النقي في السماء الذي يفرق النجوم، قبل ان ترتفع الشمس فوق الأفق.»

فألقت عليه نظرة جانبية وهي تقول: «إنك تتكلم كشاعر. هل أنت كذلك؟»

فضحك قائلاً: «كلا مع الأسف، إن عملي بعيد عن الشاعرية، مع ان والدي كان يهتم كثيراً بأشعار هذه المنطقة... أغاني التروبادور وما يليها.»

سألته: «هل كان يكتبها بنفسه؟»

فهز رأسه نفياً وهو يقول: «كان أبي يعيش في أرض تعود إلى عائلته، يغرس كرومه بنفسه. كان يعشق الحياة البسيطة.»

قالت: «هذه الحياة تتراءى لي جميلة حقاً.»

قال: «أظنها كانت قاسية، في إحدى الفترات، ذلك ان الحياة البسيطة تصبح معقدة أحياناً، وفي النهاية، عاد أبي إلى باريس.»

سألته: «وهل تعيش أنت أيضاً تلك الحياة البسيطة؟»

أجاب باسماً: «حسب استطاعتي، ولكنني مهندس في أغلب الأحيان. وقد اعتدت العمل في باريس، ولكن أعمالنا تمتد وتتشعب في أنحاء البلاد، وأنا حالياً مستقر في تولوز.»

قالت: «أي أنك عدت إلى جذورك؟»

أجاب: «تماماً. وأنا أعمل بصورة رئيسية، مستشاراً في

حفظ وترميم المباني القديمة... أي البيوت التي كانت قد أهملت في غمرة الانجراف الكاسح من الأرياف إلى المدن، والتي عادت الآن مطلوبة.»

قالت مفكرة: «أظن ان إصلاح نسج التاريخ هذا فيه من الشاعرية والخيال بقدر ما في الشعر نفسه.»

فازدادت ابتسامته اتساعاً وهو يقول: «إنني، في الواقع، أتفق معك في هذا، ولكنني لا أقول ذلك لعملائي وإلا فهم يتوقعون مني أن أعمل لأجل الحب وليس لأجل النقود.»

سألته: «هل تعمل، حالياً، في مشروع ما؟»

أجاب: «تقريباً. وأنا الآن في إجازة رسمية.» ولما لم يبد عليه رغبة في التحدث في هذا الموضوع، سكتت.

وسألته بعد برهة: «هل تفتقد الحياة في باريس؟»

هزّ رأسه نفياً وهو يقول: «إنني لا أفتقد أية مدينة. لقد اختارت أسرتي الحياة هناك ما عداي.»

فعادت تسأله: «هل أسرتك أصلاً، من هذه المنطقة من البلاد؟»

أجاب: «نعم. إن جذورنا دوماً كانت هنا، وفي الواقع، كان جدي هو أول من انتقل من هنا كلياً.»

سألته: «ألم تخطر له العودة قط؟»

هزّ كتفيه قائلاً: «لقد كانت جدتي باريسية لا تحب الحياة في الريف.»

قالت: «ولكنك أنت عدت.»

أجاب: «نعم، عدت إلى حيث أنتمي ويسعد قلبي.»

فكرت ميغ بشيء من الكآبة في أنه لم يحدث قط أن كانت هي متأكدة، يوماً، مما تريد، كما يبدو عليه هو. فهي ما

زالت تعيش في آخر منزل لأبيها. ولكنه قد تحوّل كلياً حسب ذوق زوجة أبيها ايريس مما جعل ميغ تشعر، في أغلب الأحيان، وكأنها غريبة. وهي قد أصبحت الآن دون عمل تعول به نفسها. وهكذا شعرت بنفسها هائمة في العالم. وربما حان الوقت لكي تجد لنفسها مستقراً تمدّ فيه جذورها.

وابتدأت الآن تتساءل عن المكان الذي كانا ذاهبين إليه. فقد كانت تظن أنه سيأخذها إلى مطعم محلي لا تكون فيه الكهرباء مقطوعة، ولكن سيارته الستروان كانت تسير في سرعة فائقة، وتمنت لو كانت لاحظت إشارات السير، لترى، على الخارطة التي تحملها معها في حقيبتها، وجهة سيرهما هذه.

وكأنما لاحظ شرودها، فسألها: «أتحبين أن تسمعي شيئاً من الموسيقى؟»

أجابته بسرعة: «كلا. إنني أفضل متابعة المناظر والحديث، ولكن إذا رأيتني أكثر عليك بالأسئلة، نبهني إلى ذلك.»

فرمقها بنظرة سريعة، ثم عاد ينظر إلى الطريق وهو يقول: «لا أظنك توجهين إليّ أسئلة لا أحب الإجابة عنها. هل الأمر كذلك بالنسبة إليّ، يا مارغريت؟»

أجابت: «طبعاً، فليس لديّ ما أخفيه.»

قال هازلاً: «امرأة دون أسرار؟ ذلك شيء غير معقول.»

فضحكت وهي تقول: «كلا، إن حياتي غير معقدة، بل ومملة أيضاً.» وفكرت في أن حياتها كانت كذلك في الحقيقة.

www.rewity.com

قال: «ومع ذلك، أراك تسافرين بمفردك، وتهتمين بهذه المنطقة أكثر مما يفعل السياح عادة، وهذا لا يدلّ على انعدام في النشاط. أظنك تخفين شيئاً في أعماقك، يا مارغريت.»

كان في صوته نبرة جعلت قلبها يقفز من موضعه وأجابت بشيء من الانفعال: «إن ذلك يقال عن كل شخص يولي إجازته اهتماماً غير عادي.»

سألها بعد صمت قصير: «أخبريني. لماذا تلكأت بالجواب حين سألتك ان تتعشي معي؟ هل هنالك صديق في انكلترا، قد يعقد الأمور؟»

وفكرت ميغ ساخرة في تيم هانزبي، ثم قالت: «لا يوجد أحد.»

فقال بلهجة يبدو فيها الشك: «لا أصدق أنه لا يوجد ثمة شخص تهتمين به.»

هزت كتفيها وقد منعها الكبرياء من الاعتراف بأنها حتى الآن، ما زالت تحتل مكاناً غير ملحوظ على الرف. وان هنالك شخصين فقط يهمانها حقاً، هما صاحب المكتبة الذي تقاعد الآن، وامرأة مسنة كانت لها بمثابة الأم ومنحتها من الحنان والعزاء ما عجز أبوها إزاء حيرته وألمه لفقد زوجته الشابة، عن تقديمه إليها، وأنها هنا الآن، بسبب هذين الشخصين.

وازدردت ريقها. ليس لديها الكثير لتتحدث عنه، في سنيها العشرين هذه، ثم ان هذا ليس الوقت المناسب للشعور بالحزن لأجل نفسها. ولكن، ما شأنه هو بذلك في ما لو لم تشأ هي ان تكون صريحة؟ ثم لماذا هي تسعى لأن تبدو

مثيرة للاهتمام فقي الوقت الذي عندها فيه ما تخفيه؟

قالت متحدية: «وهل هذا يغيّر من الأمر شيئاً؟ إن دعوة إلى العشاء لا تستلزم موعظة في الوفاء.» والتقطت أنفاسها وهي تتابع: «ثم انك أنت أيضاً قد تكون متزوجاً.»

فردّ عليها قائلاً: «وهل لكوني متزوجاً أية أهمية؟»

شعرت بأنه يراوغ في كلامه، مما جعل قلبها ينتفض هلعاً بشكل غير معقول.

أجابته: «أظن الأمر مهماً جداً بالنسبة إلى زوجتك.»

قال: «من حسن الحظ، إذن، ان لا زوجة لي بعد.» كانت لهجته، وهو يقول ذلك، مزيجاً من السخرية وشيئاً غامضاً لم تدرك كنهه.

فغمغمت تقول: «هذا من حسن حظها هي، على كل حال.» وشعرت، وهي تقول ذلك، بالاشمئزاز من نفسها لهذا الشعور بالارتياح الذي اكتنفها والذي جعلها سيئة الخلق لتقول شيئاً كهذا.

فقال بلهجة تحوي شيئاً من اللوم: «ليس هذا من اللطف في شيء، ألا تظنين أنني سأكون زوجاً جيداً؟»

فأجابت باقتضاب: «لا يمكنني إعطاء رأي صحيح في هذه المدة القصيرة من تعارفنا.» كانت تعلم أنه يضحك منها رغم الجد الذي يبدو على ملامحه والذي يقرب من العبوس.

فقال: «ولكن لا شك ان عندك مثلاً أعلى في خيالك، ما هي الصفات التي تريدينها فيه؟ هل تتطلبين فيه الأمانة الزوجية؟»

أجابت ميغ وهي تعبث بشريط حقيبة يدها: «أريده ان يحبني، ويحبني أنا فقط، كما أحبه، وأظن هذا يسهّل أموراً كثيرة.»

سادت فترة صمت قال بعدها: «هذا يكتسح كل شيء بالتأكيد. ولكن إذا حدث، بالرغم من هذا الحب، وتدخلت امرأة أخرى تريد ان تسلبك مثلك الأعلى هذا، ما الذي ستفعلينه، عند ذاك؟ هل تضحين بنفسك؟ هل تطلقين سبيله ليذهب إليها؟»

فأجابت بعنف: «كلا. سأكافح للاحتفاظ به بكل ما أملك.»

فقال بصوت منخفض: «هل ستكونين عديمة الرحمة؟ هل ستستعملين السلاح؟»

فأجابت مترددة: «طبعاً. ولكن لماذا توجّه إليّ كل هذه الأسئلة؟»

فقال بلطف: «لأنني أريد ان أعرف يا صغيرتي. فهذه المعرفة هي جزء من رحلة الاكتشاف التي تحدثت عنها، وقد وجدت أنك ستدافعين عن حبك كالنمرة.»

ومرة أخرى، ظهرت تلك النبرة الغامضة في صوته. ووجدت ميغ نفسها ترتجف. فلاحظ هو ذلك وسألها: «هل تشعرين بالبرد؟»

فقالت وهي تتصنع ابتسامة: «أوه، كلا، ربما أنا جائعة.» وذهب بها التفكير، وهي تقول هذا إلى الغداء الذي سبق واشترته للنزهة تلك، وسحق مع السيارة.

فقال: «لقد صبرت وقتاً كافياً وآن لك ان تأكلي.» واستدار بالسيارة فجأة خارجاً من الطريق العام ليدخل في طريق يقود إلى أسفل التل. واستندت ميغ بيديها عندما تأرجحت السيارة ثم قفزت فوق الأحجار والأخاديد العميقة.

وشهقت قائلة: «هل يوجد ثمة مطعم في هذا المكان؟ أرجو ان يكون هناك طريق آخر نخرج منه؟»

فأجاب: «انه ليس مطعماً.» كان أمامهما مجموعة من مبانٍ سابحة في الشفق الوردي للشمس الغاربة. وكان ثمة دخان ينبعث من مدخنة من إحدى تلك المباني، ليعلو متلوياً بكسل في الهواء الساكن.

قالت: «أين نحن إذن؟» لقد بدا وكأنهما في متاهة. وشعرت بالعزلة تكتنفهما إذ لم تر أية سيارات هناك. ولا شك ان هذا المكان غير مأهول.

قال وقد عادت السخرية إلى صوته: «هذا هو منزلي. منزل العائلة الذي حدثتك عنه.»

سكت برهة ثم عاد يقول: «لقد صممت، يا جميلتي، على تناول الطعام في منزلي هذه الليلة، مستمتعين باستكشافنا المتبادل وحدنا، وآمل ان يوافقك هذا.»

www.rewity.com

الفصل الرابع

ساد صمت مزعج في السيارة، وتصلّب جسد ميغ وجف فمها.

تساءلت غير مصدقة، عما جعلهاتتصرف بكل تلك الحماقة. وعذبها هذا الخاطر. لماذا لم تستمع إلى ما داخلها من ريبة؟ ولماذا وثقت به إلى هذا الحد؟ هل لأنه أول رجل جذاب يهتم بها؟ ولامت نفسها بشدة، ولكن ما فائدة ذلك وقد أصبحت هنا الآن في شرك مخيف؟

لقد قال لها ان هذا هو بيته الذي يبعد أميالاً من أي مكان آخر... بينما هي لا تعرف حتى هذا المكان الآخر أين يكون.

لقد قالت العنكبوت للذبابة (هل لك أن تتفضلي إلى غرفة جلوسي؟) ولقد فعلت هي ذلك بالضبط فتحقق الكابوس.

وتقبضت يديها في حجرها.

قالت بصوت حاولت أن تحتفظ به هادئاً متزناً: «يبدو أنني فقدت شهيتي. هل لك أن تعيدني إلى الفندق من فضلك؟»

وساد صمت قصير هز جيروم مونتكورت بعده كتفيه وقد لمعت عيناه القاتمتان بالدعابة وكأنه قد علم بالضبط ما يخفي هدؤها هذا من أفكار ومخاوف.

وقال برصانة: «طبعاً إذا كان هذا ما تفضلين. ولكن بيرث ستشعر بالمهانة وخيبة الأمل إذا أنت لم تتذوقي طعامها.»

فقالت تسأله: «بيرث؟ من هي هذه؟»

فأجاب: «إنها مدبرة المنزل، وهي تعيش هنا مع زوجها أوكتافيان وكانا يعتنيان بالمنزل والكروم منذ رحيل أبي. أما الآن، فهما يعتنيان بي.» وأشار إلى المنزل قائلاً: «أنظري.»

كان ثمة رجل قد خرج من الباب الأمامي ووقف يراقبهما بفضول وقد وضع يديه على خاصرتيه. كان معتدل الطول ممتلىء الجسم. وكان وجهه أسمر مغضن كقشرة جوزة، وقد وضع على شعره الأشيب قلنسوة. وكان له ساقان مقوستان وشاربان متهدلان. وشعرت ميغ في الحال، بالإطمئنان يعود إليها بعد ما رأت أنه لا يشبه بحال، أولئك الأشرار الذين يشتركون في أعمال الخطف والاعتداء.

قال جيروم برقة: «هل ستجازفين بتناول الطعام على مائدتي الآن، أم تفضلين أن تأكل هنا في السيارة؟»

اعترفت بينها وبين نفسها، بسخافة هذا الوضع، بينما كانت تنزل من السيارة لتسير بجانبه نحو المنزل وهي تقول بكبرياء: «كله سواء، إنما كان يجب عليك أن تخبرني مسبقاً أننا قادمان إلى هنا.»

فأجاب: «ربما كانت تعوزني الجرأة خوفاً من أن ترفضي.» وازداد صوته رقة وهو يستطرد قائلاً: «إنني في غاية الشوق إلى رؤيتك هذه الليلة.»

وبدا لها هذا الجواب معقولاً، وحدثتها نفسها أنه معقول إلى درجة ربما كان اتخذه عادة في تجارب سابقة، وابتدأ قلبها يخفق بعنف. ولكنها تذكرت أنه من المؤكد أنها ليست أول امرأة تشعر بنبضها يتسارع، وبحرارتها ترتفع لدى رؤيتها الابتسامة في عينيه.

لقد كانت فعلاً، حمقاء إذ ظنت أنه بحاجة للجوء إلى العنف أو استعمال أي شكل من الاكراه. ذلك أن تصرفاته أكثر حذقاً ولباقة من كل هذا وإن كانت خطورتها واحدة. فهو مازال العنكبوت وما زالت هي الذبابة، وعليها ألاّ تنسى ذلك.

ولكن نسيجه العنكبوتي هذا كان ممتعاً.

كان المنزل مؤلفاً من طابقين، والسطح مغطى بالقرميد الأحمر. وكانت الجدران من الحجارة المصبوغة باللون الأصفر الفاتح، بينما النوافذ زيتية اللون. وكانت ثمة شبكة فوق الممر المؤدي إلى الباب قد عرشت فوقها الورود.

دخلا من الباب مباشرة إلى الغرفة الرئيسية في المنزل، وكان السقف منخفضاً ذات دعائم قاتمة، والأرض مرصوفة. وفي أحد الجوانب، كان ثمة مدفأة كبيرة خالية، وعلى جانبي الغرفة قامت اريكتان متقابلتان من الجلد. ومقابل المدخل كان ثمة باب زجاجي يقود إلى باحة تتألق بأحواض الزهور، بينما في الزاوية قام سلم حلزوني يقود إلى الطابق الأعلى.

أما في الطرف الآخر من الغرفة، فقد وضعت مائدة رائعة معدة لشخصين، وحولها ستة مقاعد عالية الظهر منجدة بالجلد. عدا عن خزانة كتب مملوءة، ومكتب مكدسة عليه الأوراق، لم يكن في القاعة أثاث آخر. وكان الانطباع العام، كما بدا لميغ وهي تنظر حولها، يوحي بجو من الرجولة الأخاذة إلى لمسات قليلة رقيقة.

وقالت تسأله وهي ترى مواد بناء وألواحاً خشبية مكدّسة في زاوية من الباحة: «هل هذا هو المشروع الذي تحدثت عنه؟»

فأومأ برأسه مجيباً: «إنه واحد منها. لقد فكرت في تمديد جانب الباحة خلف المنزل، مستغلاً لذلك أحد مخازن الغلال محولاً إياه إلى مكان أعمل فيه، وأيضاً إلى غرف للضيوف. ولكنني غيرت رأيي الآن، إذ أن اقتطاعي المساحة تلك التي أنا بحاجة إليها ستفسد منظر البناء.»

قالت بلهجة حاولت أن تجعلها عفوية: «هل تستقبل ضيوفاً بكثرة؟»

أجاب: «ليس حالياً، لأنني كنت مشغولاً جداً.» وسكت لحظة، ثم تابع يقول: «كان أول ما قمت به بعد عودتي إلى هنا، هو تغيير طراز الطابق الأعلى. لقد أردت أن أبدأ من المطبخ...» وأشار إلى قنطرة حيث لمحت ميغ منضدة وموقداً قديم الطراز، وتابع: «ولكن بيرث لم تسمح بذلك.»

وعبقت في أنف ميغ رائحة شهية لطعام بالثوم تنبعث من المطبخ. وقالت: «أظن أن أكثر الطباخين يفضلون المواقد المألوفة.»

كان أوكتافيان قد سبقهما في الدخول إلى المنزل، ليظهر الآن في باب المطبخ عابساً بوقار، بينما زوجته خلفه تحدق من فوق كتفه، وكانت بيرث أطول من زوجها، وكانت ترتدي ثوباً قطنياً منقوشاً بالزهور. أما شعرها الذي خطه الشيب فقد كان معقوداً فوق رأسها. وكانت تنظر إلى ميغ وقد بان الشك في عينيها.

سمعت ميغ أوكتافيان يتمتم بشيء مثل (إمرأة انكليزية أخرى) ولكن، ربما كانت مخطئة في فهم لهجته الخشنة تلك. وعلى كل حال، لم يكن من شأنها الاهتمام بجنسيات النساء اللواتي يحضرهن جيروم إلى منزله، لم تكن تشك في

إحضاره نساء إلى هنا مهما كان مقدار ازدحام وقته بالعمل. وربما كان، بالعكس من مستخدميه، يميل إلى الأجنبيات.

قال لها جيروم: «سيكون الطعام جاهزاً بعد لحظات. اتريدين أن تشاهدي بقية غرف المنزل؟»

أجابت وهي تبتسم في ذينك الوجهين الجافين عند باب المطبخ: «نعم، سيكون هذا رائعاً.» وأضافت بالفرنسية: «إن رائحة الطعام شهية جداً.»

ولكن الملامح الجامدة لم تتغير. واستدارا، هما الاثنين، داخلين إلى مكان عملهما. ولم يكن ينبىء عن وجودهما، أثناء صعود ميغ السلم خلف جيروم، سوى قرقعة الأواني. وكانت بسطة الدرج ضيقة محاطة بخزانات خشبية رائعة الجمال مبنية في الجدار.

قال جيروم: «كانت هذه، من قبل، غرفاً صغيرة مفتوحة الواحدة على الأخرى، وهي الآن مخزن وبجانبه حمام جديد.» وفتح باباً في الجهة الأخرى من بسطة الدرج وهو يتابع: «أما البقية فهي خاصتي.»

انتبهت ميغ وهي تدخل الغرفة التي تحتل ثلثي الطابق الأعلى تقريباً، إلى أن ليس ثمة إضافات غير ضرورية هنا أيضاً. وكان يبدو أن الجدار الخلفي بأكمله، من الزجاج بحيث يظهر منظر الوادي المشجر والمنحدرات الشاهقة خلفه.

وفي الطرف الأقصى من الغرفة، كانت هناك الكوات في السقف تضاعف من الإضاءة، وكان هناك ثمة منضدة يعمل عليها جيروم قد غطي سطحها الفسيح بالتخطيطات والرسوم. وعدا عن خزانة مكتبية مستطيلة تحوي أدراجاً عديدة، كان

السرير ذو الاتساع غير العادي هو القطعة الوحيدة من الأثاث مصنوعاً من الخشب المحفور المزخرف عند الرأس ومغطى بغطاء مزخرف من اللونين الأسود والذهبي.

وتراءى لميغ أن ثمة شيئاً من البربرية في هذه الغرفة يتعمّد جعل السرير هذا هو النقطة المركزية فيها، مما يوحي بنوع من التصريح الشخصي برسالة فضلت هي أن تتجاهلها.

وبدلاً من ذلك، نقلت ناظريها إلى ذلك المنظر الخارجي ذي الجمال الصاعق وأخذت تتأمله قائلة: «يا للروعة! إنني أدرك الآن السبب في أنك جعلت الجدار كله نافذة واحدة.»

وتقدم جيروم يقف بجانبها وهو يشير إلى الصخور الشاهقة التي تكاد تلامس السماء، قائلاً: «هنالك فائدة أخرى لذلك، فهي في اتجاه الشرق تقريباً. ولهذا فبإمكاني أن استمتع بمنظر الفجر وأنا في سريري.» وسكت قليلاً ثم تابع: «وإذا كان معي من أحب، فهذا منبع جيد للإلهام.»

وغضبت ميغ من نفسها وهي تشعر بالصورة التي أثارتها كلماته هذه في نفسها تبعث التوهج إلى وجهها.

رفع جيروم يده ليلامس وجنتها برقة وهو يتمتم بالفرنسية شيئاً.

فقالت ميغ متلعثمة: «إنني... إنني لا أفهم ما تقول.» وكانت أنفاسها تتلاحق ويده تلامس شحمة أذنها بخفة منحدرة إلى عنقها، لتتحول إلى رقبتها تحت شعرها الكث. وشعرت بأن عليها أن توقف كل هذه الحركات حالاً. ولكن شيئاً ما سمرها في مكانها دون حراك.

قال: «إنه بيت من شعر التروبادور الغنائي، يا جميلتي، وهي أغنية تدعى أغنية الفجر، وفيها يرثي الشاعر ليلته

مع حبيبته التي مرت سريعاً.» ومال نحوها وهو يهمس بكلمات الأغنية تلك مترجمة (آه، يا ربي، آه، يا ربي، لقد أقبل الفجر سريعاً.)

واشتد توهج وجه ميغ. وحاولت أن تتحرك، أن تبتعد... ولكنها وجدت نفسها، دون أن تشعر، بين ذراعيه.

وانحدر بنظراته يحدق في أعماق عينيها فبادلته النظرات بعينين رائعتين، وهي تفكر في أن عليها أن تقاوم الآن، في هذه اللحظة. مهما كانت درجة تأثيره عليها.

وعند ذلك، سمع صوت بيرث من أسفل السلم ينادي: «العشاء جاهز يا سيد جيروم.» وبهذا توارى التجاذب الذي لفهما.

وبدت على شفتي جيروم ابتسامة ملتوية وهو يقول: «ثمة شهية واحدة في نفس الوقت.» وتناول يدها يطبع على راحتها قبلة سريعة بعثت الرجفة في جسدها، شاعرة بالخجل في الوقت نفسه.

كانت ترتجف في أعماقها، شاعرة بما يشبه الدوار وكانت ساقاها ضعيفتين وهي تنزل السلم الملتوي وعندما تعثرت قدمها مد يده يسندها قائلاً وفي صوته رنة ضاحكة: «حاذري.» فقد كان يعلم تماماً ما الذي أحدثه في نفسها من اضطراب. لقد كان رجلاً فاتناً ذا خبرة هائلة بينما كانت هي عديمة الخبرة كلياً.

حدثتها نفسها بأنه لا بد شعر بعدم خبرتها هذه، فظنها قطعة من الكعك سرعان ما يلتهمها... وأسندت قبضتها على حاجز السلم. عليها أن تتوقف عن الاستسلام إلى مشاعرها

نحوه. فهي لن تتحمل المزيد من الانحدار وازدردت ريقها، وشعرت أنها بحاجة حقاً إلى الطعام إذ أنها لم تتناول شيئاً منذ وقت طويل جداً... منذ وجبة الفطور.

إن تناول وجبة طعام حسنة، ستجدد قواها وتمنحها القدرة على التفكير في كيفية التعامل مع هذا الوضع المزري.

وعلى المائدة، كانت بيرث تضع وعاء الحساء يتصاعد منه البخار، وبجانبه طبق الخبز. وأشارت برأسها إلى ميغ وجيروم للجلوس إلى المائدة، ثم ابتدأت تغرف من الحساء الدسم لتضعه في طبقيهما، مع الاكثار منه في طبق ميغ.

حدثت ميغ نفسها، متهكمة، بأن عطف هذه المرأة لم يظهر إلا في سكب الطعام، لتشهد، بعد أول ملعقة من هذا الحساء وضعتها في فمها، بأن هذا الطعام لاعيب فيه، لقد كان الحساء لذيذاً حقاً وذا نكهة غير عادية لم تستطع ميغ معرفة كنهها.

وعندما سألت جيروم عن ذلك، أجاب: «إنه حساء الثوم. هل أعجبك؟»

أجابت بصدق: «إنه رائع. أخبر بيرث بهذا من فضلك، لأنني لا أظنها تفهم كلامي إن أنا تحدثت إليها.»

فقال بشيء من الاشمئزاز: «بل هي تفهم حديثك. إن بيرث و أوكتافيان قد أمضيا سنين طويلة في خدمة أسرتنا مما منحهما وضعاً ذا امتياز خاص فيهما. وأحياناً، هي وزوجها يستغلان هذا. فاعذريهما.»

وخطر في بال ميغ أنها، هي أيضاً، يمكنها أن تستغل هذا الوضع، محتجة بعدم موافقة بيرث على وجودها هنا، لكي تنسحب بانتظام في الوقت المناسب.

ورفعت أطباق الحساء لتوضع مكانها أطباق لحوم دسمة مع سلطة الخضر بزيت الزيتون.

قالت له ميغ متسائلة: «ظننتك تحدثت عن نوع من الطعام يسمى كاسوليه؟»

فابتسم لها قائلاً: «هذا سيأتي حالاً.»

وكانت ميغ قد ابتدأت تشعر بأنها لن تستطيع أن تضع لقمة أخرى في فمها، عندما وصلت الكاسوليه موضوعة في طبق واسع. التي هي عبارة عن خليط من الفاصوليا واللحم والسجق والثوم.

وهكذا، أتت على ملء طبق كامل من هذا الطعام. ومع الخبز أيضاً، رافضة طبقاً آخر بأسف. وبعد ذلك، جيء بالحلوى التي كانت عبارة عن شرائح التفاح المطهوة على نار خفيفة.

وأخيراً، قالت ميغ وهي تضع الشوكة من يدها: «لا أظنني، بعد الذي أكلته، أستطيع الحراك.»

ضحك قائلاً: «ولكنك ستتحركين، كل ما في الأمر أنك غير متمرنة على أكل كميات كبيرة.»

قالت: «عند انتهاء إقامتي في فرنسا سأكون كالبرميل.»

فقال: «هذا يعتمد على مدة اقامتك.»

إنه، بالطبع، يظنها تقوم بإجازة تقليدية هنا. وتساءلت عما سيقوله لو أنها اطلعته على أنها ستبقى هنا شهراً كاملاً. ولكنها لم تكن تريد أن تخبره بذلك.

جاءت بيرث بالقهوة لتضعها على المائدة، ثم تنسحب من المكان، ونظرت إليها ميغ وقد اختلطت في نفسها المشاعر.

قال جيروم الذي أدرك من ملامحها، ما يدور في ذهنها،

بدقة أثارت غيظها: «إنها، وزوجها يسكنان في مسكن يقوم في الناحية الأخرى من المطبخ ولن يسمعاك إلا إذا صرخت بصوت عالٍ.»

قالت باقتضاب: «أشكرك. إن هذا يبعث على الاطمئنان.»

فقال: «ولكن ربما أنت لا تريدين أن تصرخي.» وتضرج وجه ميغ لسماعها هذه الكلمات بما تتضمنه من معنى.

وخطر ببالها أنه لو كانت مارغوت هي الموجودة هنا بدلاً منها، لما تضرج وجهها كالحمقى، بل كانت ستسارع بجواب فكه، مثير، إذ أنها تكون قد خططت مسبقاً، لنهاية هذا المساء.

ولكنها ليست نفس الخطة التي توصلت إليها ميغ...

ونهض عن كرسيه واستدار حول المائدة متوجهاً نحوها وفي حركة رشيقة، وجدت ميغ نفسها ترفع عن الكرسي بين ذراعيه، ثم تنقل عبر القاعة، إلى إحدى الأريكتين.

وأخذت ميغ تجاهد للافلات منه وهي تضربه على صدره بقبضتيها وتقول لاهثة: «دعني... أتركني.»

فقال وهو يجلس بجانبها ثم يأخذها بين ذراعيه يحتضنها بشدة مانعاً إياها من الحركة: «حالاً، عندما أنهي الاختبار.»

كانت قد جرحت كبرياءه بازدرائها ذاك، وهو الآن يريد معاقبتها برد الاعتبار لنفسه.

حسناً، يمكنها أن تبطل اعتقاده بأنها فريسة سهلة، ثمرة ناضجة على وشك أن تسقط في يده الممدودة.

وفي النهاية، قال متأوهاً: «مارغريت... تباً، ليست هذه هي الطريقة المناسبة.»

ونظر في عينيها، ثم إلى تقاطيع وجهها وهو يتمتم: «إنك جميلة... كل شيء فيك جميل.»

وتصاعد رنين الهاتف فجأة يخترق هذا السكون الحافل بالاحاسيس، المحيط بهما. وكأنما قد دخل الغرفة شخص ما. وشدت ميغ نفسها من بين ذراعيه لتهب واقفة على قدميها وقد عاد إليها وعيها بأكمله.

وعاد يمد ذراعيه نحوها، ولكنها دفعته بيديها قائلة: «كلا... كلا. إذهب لترد على الهاتف، وإلا سمعت بيرث رنينه وجاءت لتجيب بنفسها. أليس كذلك؟»

أوماً وهو يسير متباطئاً نحو المكتب حيث الهاتف ليأخذ السماعة قائلاً باختصار: «مونتكورت.» ثم استمع برهة وقد تجلى الجمود على وجهه. وما لبث أن رق صوته بشكل ملحوظ وهو يقول: «أهذا أنت؟ نعم، لقد عدت هذا المساء.» واستمع لحظة، ثم استطرد بصوت منخفض: «لا أستطيع الكلام الآن، يا عزيزتي، هذا مستحيل. سنتحدث غداً. نعم، هذا وعد مني.»

وشعرت ميغ بأن تلك الرقة في صوته، تلسعها كالسياط. لقد كانت منذ لحظة بين ذراعيه. وشعرت باشمئزاز من نفسها وهي ترى أنها كانت على وشك أن تفقد كل احترام لنفسها مع فقدانها ضبط النفس ذاك. وها هي تسمعه يتحدث إلى امرأة أخرى... إلى امرأة يبدو واضحاً أنه على علاقة حميمة بها... امرأة كان على وشك خيانتها، معها.

لقد تأكدت الآن بوضوح تام، من قلة ما تعرفه عنه، كما اتضح لها ضعف مركزها في حياته والذي كان كسحابة عابرة. إنه درس مؤلم حقاً، ولكنه كان ضرورياً لكي تتعلم.

كان جيروم يقول: «نعم، قريباً جداً. لقد أعطيتك كلمتي. إلى اللقاء.»

وعندما سمعته يضع السماعة مكانها، استدارت إليه تقول

بصوت حاولت جهدها أن يبدو هادئاً: «يمكنك أن تعود فتطلبها حالاً، لأنني خارجة الآن. هل هنالك سيارات أجرة يمكنني طلبها هاتفياً؟»

فتقدم يقف خلفها آخذاً إياها بين ذراعيه بشدة، وهو يقول بهدوء: «إنني آسف. لم أكن متوقعاً أي اتصال هاتفي هذا المساء، إذ لم يكن ثمة من يعلم بعودتي.»

وفكرت بمرارة، وهي تتملص من بين ذراعيه، في ظنه بأن هذا العذر يغير من الواقع شيئاً ربما كانت تلك الفتاة لا تستطيع الانتظار.

وقالت له برقة: «من الواضح أن جاذبيتك لا تقاوم. ساتركك تتابع حياتك المليئة، بينما استمتع أنا ببقية إجازتي.»

وأمسك جيروم ذراعها يديرها نحوه وهو يقول: «إنها ليست كما تظنين. إنها مجرد صديقة، وهذا كل شيء.»

هزت ميغ رأسها قائلة وهي تتجنب نظراته العنيفة: «ليس هذا في الحقيقة موضع اهتمام مني. لقد أمضيت أمسية بهيجة، ولكنها انتهت الآن، وعليّ أن أعود إلى الفندق، إذ علي أن أباشر نشاطي مبكرة.»

قال بصوت أجش: «لا تذهبي إذن. إبقي هنا معي يا مارغريت، وراقبي بزوغ الفجر معي.»

وخلصت نفسها من قبضته وهي تقول بحزم: «كلا. لا... لا أستطيع.»

فألح عليها بقوله: «لِمَ لا، ما دمنا نحن الاثنين نريد ذلك؟»

فأجابت ببطء وهي تختار كلماتها بعناية: «لأنك ستكون مقدة بالنسبة إليّ، أنا لست بحاجة إليها.» وحاولت أن

تبتسم وهي تتابع قائلة: «الحياة البسيطة، تذكر ما سبق وتحدثنا به.»

فهز رأسه لاوياً شفتيه وهو يقول: «أوه، كلا يا مارغريت. ليس ثمة شيء بسيط معك يا جميلتي.»

واشتد صوته وهو يتابع: «ولماذا وافقت على تناول العشاء معي هذا المساء، إذن؟»

نظرت إلى الأرض وهي تقول: «كان ذلك خطأ مني... لم أكن أريد أن أبقى بمفردي هذا المساء. لقد كان يوماً شاقاً اخرجني عن توازني نوعاً ما مما جعلني أتصرف بطريقة منافية لطبيعتي.»

وأطلق ضحكة مفاجئة كان لها صدى بشع في هذه الغرفة التي تسودها الظلال، ثم قال: «على العكس أظنني عرفتك تماماً. إذ لولا تلك المقاطعة الهاتفية التي جاءت في وقت غير ملائم، لكنت الآن معي يا جميلتي، وأنت تعرفين هذا، كما أعرفه أنا أيضاً، ولكن إذهبي إذا كنت تودين ذلك. وأرجو المعذرة إذا كنت لن أرافقك شخصياً.» ومشى نحو المطبخ وهو ينادي بصوت عال: «أوكتافيان.»

وبعد برهة، ظهر الرجل وهو يمسح فمه بظاهر يده. وألقى على ميغ نظرة عدائية من تحت حاجبيه الكثين، ثم أدار نظرة استفهام نحو مخدومه. وأخرج هذا مفاتيح السيارة من جيبه، ثم ألقاها إليه قائلاً باقتضاب: «إن الآنسة سترحل. خذها إلى فندق الأوبرج دي سورس دي بيرون من فضلك.»

وأومأ أوكتافيان برأسه بهدوء، ثم أحضر قلنسوته ووضعها على رأسه، ثم خرج إلى حيث السيارة.

وتناولت ميغ حقيبتها، ثم نظرت إلى جيروم قائلة وقد أحدث الألم غصة في حلقها: «هل يمكن أن نقول... وداعاً؟»

كان وجهه القاتم جامد الملامح وهو يجيب بهدوء: «بل سنقول، إلى اللقاء. لأن هذه هي البداية فقط.» وأطلق قهقهة وهو يتابع: «لأنني لم أنته معك بعد.»

واعتصر قلبها وهي تفكر في أن هذا ما يظنه هو. ومشت نحو الباب رافعة الرأس محاولة ألا تسرع في مشيتها، يتبعها صوته الساخر يقول: «نامي جيداً يا عزيزتي، هذا إذا استطعت.»

ولم ينظر إليها أوكتافيان وهي تصعد إلى السيارة، بل أدار المحرك صاعداً بالستروان إلى الطريق. وتقبضت يدا ميغ في حجرها، فقد كانت ما تزال غير مصدقة ما حدث... أو ما كانت ستسمح هي بحدوثه. وشعرت بالارتباك والتعاسة. لا بد أنها تصرفت بحماقة، ولكنها عرفت الآن ما هي احاسيسها.

ولكن كل هذا قد ذهب الآن وتلاشى كما تتلاشى الأحلام بمجيء الصباح. ولكن، عليها أن تكون الآن مسرورة لخلاصها من هذا. ولكن الألم في أعماقها كان له رأي آخر.

وساورها شعور عميق بالوحشة، أوشكت معه على البكاء وهي تهتف في سرها (يا حظي الحسن، دع الفجر يبزغ في حياتي بسرعة.)

الفصل الخامس

أنهت ميغ آخر لقمة من فطورها، ثم عادت تملأ فنجانها قهوة من جديد. لقد حاسبت الفندق وأحضر لها الخادم حقيبتها إلى غرفة الاستقبال. ولم يبق سوى وصول سيارتها المستأجرة لكي تتابع طريقها.

كانت أثناء تلك الليلة الطويلة القلقة، قد عزمت أمرها على إلغاء قرارها السابق بالتفرج على أنحاء المنطقة، والذهاب بدلاً من ذلك، إلى هاوت أرينياك رأساً، حيث ستمضي في تلك العزلة، شهراً كما وعدت، لتعود بعد ذلك إلى انكلترا بالسلامة، كما كانت ترجو.

وهي، بعد ذلك لن تعود أبداً إلى انتحال شخصية مارغوت وهويتها، مرة أخرى... أبداً. وعضت شفتها وهي تفكر في ذلك. لقد قادها هذا العمل إلى طريق التعاسة، وعليها الآن ان تحاول نسيان ما جرى لها في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة بقدر ما تستطيع، وهي تعرف مسبقاً ان هذا لن يكون سهلاً.

لقد انتهت إلى الأبد، تلك الفتاة عديمة الخبرة التي خرجت من تولوز، لتحتل مكانها امرأة قد استيقظت رغباتها لأول مرة في حياتها، ولكنها رغبات لن يرضيها رجل مثل جيروم مونتكورت... لقد جمعها القدر بغريب بالغ المهارة في طرق الإغواء، رجل يتنقل من امرأة إلى أخرى. إنها تستحق أفضل من ذلك، فهي لا تريد ان تسلب امرأة أخرى رجلها. إنها ليست مارغوت.

ولكن، رغم كل هذه الأفكار الايجابية المهدئة، وجدت نفسها عاجزة عن نسيان تلك الفتاة التي اتصلت هاتفياً الليلة الماضية. إنها منقذتها المجهولة... وارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة... أتراه هذا هو السبب في أنها لا تستطيع نفيها من ذهنها؟

أما بالنسبة إلى جيروم مونتكورت... حسناً، لقد خرج من حياتها الآن دون أي ضرر حقيقي ما عدا، بالطبع، الضرر الذي أصاب كبرياء الرجولة فيه. لقد تضايقت من تصرفه نحوها عندما تركته والذي وصل إلى ما يشكل تهديداً غامضاً، ولكن ربما كان الأمر كله هو أنه لم يتعود الرفض من امرأة. وتنهدت وهي تفكر في أنها، على كل حال، ليست من نوع النساء ذوات العلاقات العابرة فهي تبحث عن الالتزام عند الطرفين. ولكن جيروم مونتكورت ليس من هذا النوع. مع أنه ليس بإمكانها أبداً ان تتأكد من شعوره نحوها مهما حاولت. وذلك بالعكس من اوكتافيان الذي لم ينطق بكلمة طيلة الطريق إلى الفندق، مما يدل على شعوره العدائي نحوها، وذلك إلى ان وصلا، ونزلت هي من السيارة، عند ذلك قال لها بلهجة مهينة: «انكليزية؟ عودي إلى بلادك واتركينا بسلام.»

ولم يكن أحب إليها في الحقيقة، من العودة إلى بلادها، ولكنها سبق وتعهدت بهذا الأمر ولا يمكنها التراجع.

واقترب النادل منها يقول: «لقد وصلت سيارتك، يا آنسة.»

وابتسمت شاكرة، ورشفت بقية قهوتها ثم نهضت متوجهة إلى غرفة الاستقبال، لتتسمّر في مكانها وهي تحدق ذاهلة في ذلك الذي كان واقفاً بانتظارها.

وبادرها قائلاً: «صباح الخير يا آنسة.» وكانت عيناه تتأملانها باعجاب في تنورتها الضيقة العاجية اللون والتي تتماشى مع قميصها القصير الكمّين. وتابع قائلاً: «أراك ارتديت ملابس ملائمة للجو الدافىء هذا النهار.»

فقالت تسأله بخشونة: «ما الذي تفعله هنا؟»

فأجاب وهو ينظر في ساعته: «أريد ان آخذك إلى هاوت أرينياك فقد قلت إنك ستزاولين نشاطك مبكرة.»

فأجابت وهي تحاول ان تتمالك رباطة جأشها: «هذا صحيح، ولكن ليس معك.»

فقال يذكّرها: «ولكنني حذرتك الليلة الماضية من أن علاقتنا لم تنته بعد.»

قالت باقتضاب: «نعم، أذكر ذلك.» وخطر لها خاطر مفاجيء فتابعت تسأله: «وكيف علمت أنني ذاهبة إلى هاوت أرينياك؟»

فأجاب: «لأن هذا كان العنوان الموضوع على أمتعتك.»

وبهتت وهي تفكر في ان هذا صحيح، وقالت له: «إنك ذكي، ولكن هذا لا يعني انني سأقبل توصيلك لي أو حتى قضاء دقيقة واحدة في صحبتك. انني أريد ان أذهب إلى هاوت أرينياك بنفسي.»

قال مداعباً: «إن المسافة طويلة إلى هناك، حتى ولو ذهبت بخط مستقيم كما يطير الغراب.»

فأجابت: «ولكنني لن أذهب كالغراب. إن سيارتي المستأجرة ستصل في أية لحظة.»

فهز جيروم رأسه قائلاً: «كلا، مع الأسف، فقد ألغيت أنا إرسال السيارة تلك إليك.»

وصرخت ميغ: «فعلت ماذا؟» وانتبهت إلى الرؤوس تلتفت ناحيتهما من أنحاء المكان، بينما لمعت عينا موظفة الاستقبال من وراء مكتبها.

فأجاب: «لقد أخبرتهم أنه لم يعد ثمة حاجة إليها. وسيكون عليك ان تملأي التقرير الخاص بذلك الحادث، ولكن هذا يمكنك تأديته في أي وقت يناسبك. وثمة فرع لهم في ألبي.»

فقالت بانفعال: «لا يهمني حتى ولو كان لهم فرع في القمر. ليس لك الحق... ليس لك الحق مطلقاً في...»

فقاطعها: «هل لنا ان نتحدث في هذا الشأن في الطريق؟» وأمسك بذراعها يقودها خارجاً بها من المبنى عابراً الباحة وهو يتابع: «ان خالتك تنتظرنا للغداء.»

فسألته: «خالتي؟» وكانت على وشك ان تقول، أية خالة تلك لولا أنها أمسكت نفسها وهي تشهق بعد إذ كادت تنسى نفسها. وسألته: «كيف عرفت بذلك؟»

فأجاب: «لأن السيدة دي بريسو هي من عملائي. وأنا أضع التخطيطات الإصلاحية في قصرها. وهو المشروع الذي سبق وحدثتك عنه.» وسكت برهة مانحاً إياها الفرصة لاستيعاب ذلك، ثم استطرد: «لقد حدثتني عنك بكثرة، وفي الواقع كانت قد طلبت مني إحضارك من المطار غداً. ولكنها سرّت حين علمت انك ستصلين إليها سالمة قبل الموعد بيوم.» وسكت لحظة مرة أخرى ثم عاد يقول: «وبجانب هذا، فإنه من غير المعقول ان يكون ثمة اثنتان باسم مارغوت ترانت.»

وفكرت ميغ في نفسها ساخرة، ان هذا ما يظنه هو...

وقالت ببطء: «إذن، لا بد أنك قد علمت... ليلة أمس...»
وسكتت.

وأومأ برأسه قائلاً: «عرفت من أنت والجهة التي تقصدينها. وكل ذلك من تلك البطاقات الملصقة على أمتعتك.»

فقالت: «ومع هذا، لم تقل شيئاً.» وعادت إلى مخيلتها صورته تلك واقفاً دون حراك بجانب الطريق، يبدو أنه لم يكن مسروراً لذلك.

وهز جيروم كتفيه دون اكتراث قائلاً: «فضّلت، من باب الفكاهة ألا أفعل ذلك لأستمتع برؤية ما قد يحدث.» وسكت تاركاً إياها لتفكر في ما قال، ثم عاد يتابع: «وأنت أيضاً لم تكوني صريحة تماماً، يا مارغريت.»

فاحمر وجهها وهي تقول: «ليس عليّ ان أعرض تاريخ حياتي أمام غريب.» وسكتت لحظة، ثم عادت تقول بنوع من المعاكسة: «هذا إلى انني ظننت، وليت ظني كان صحيحاً، أنني لن أراك مرة أخرى أبداً.»

قال بلطف: «ها قد وصلنا.» وفتح لها باب السيارة بأدب مبالغ فيه وهو يقول: «كان يجب ان تستمعي إليّ الليلة الماضية.»

قالت: «لقد جاء دورك الآن لتستمع إليّ... قبل ان أصعد إلى السيارة.» وألقت عليه نظرة باردة صريحة وهي تلحظ ملابسه الأنيقة، بنطاله الجينز الجيد التفصيل وقميصه الأزرق القطني المفتوح عند الصدر. وشعرت بغصة في حلقها وقد خنقتها المشاعر.

قالت وهي تزدرد ريقها: «إن الأمس قد انتهى، بالنسبة

إليّ. وبكلمة أخرى انني أعتبره وكأنه لم يكن. فأنا هنا للعمل فقط. لأكون مرافقة للسيدة دي بريسو وأنا لا أريد...»
وسكتت مترددة.

فقال يكمل لها كلامها: «لا تريدين تعقيدات؟»

أجابت بحزم: «بالضبط. إنني ساقوم بعملي بينما تقوم أنت بعملك، ولا شيء غير ذلك.»

فقال وهو يشملها بنظره: «ربما ليس هذا ما أريده أنا.» كانت نظراته تطوف بين وجهها وذراعيها وكأنه يذكرها بالوقت الذي كانت فيه بين ذراعيه في الليلة الماضية... وأحست لهذه الذكرى بشعلة حارقة في أعماقها. وأدركت، فزعة، ما يقصد. فأخمدت شعورها هذا بسرعة وهي تقول: «إذن، فهذا أمر صعب، يا سيدي. لأنني متأكدة من ان خالتي لا تريد مني الإكثار من المقابلات بأي شكل، في الحقيقة، لو انني أعلمتها بما كان منك، ربما أخذت تفكر في استخدام مهندس سواك.»

ضحك وهو يقول: «أتهددينني يا جميلتي؟ إنني لا أنصحك بذلك. فأنا لست في هاوت أرينياك بصفتي المهنية. فأنا كما سبق وأخبرتك، في إجازة حالياً، وخالتك هي صديقة قديمة عزيزة عليّ. وعملي عندها هو مسألة صداقة ومحبة. إذن، فعليك ان تتقبلي حضوري، يا مارغريت، سواء شئت أم أبيت.»

سألته وهي تتحرك بقلق: «إلى متى؟»

فنظر إليها متأملاً ثم قال: «حسب ما يستلزمه الوقت.»

سألته بخشونة: «ماذا تقصد؟»

بدا الغموض في عينيه وهو يجيب: «إنها بحاجة إلينا،

نحن الاثنين، يا مارغريت، وهذا هو المهم. والآن، هل لك ان تصعدي إلى السيارة؟ أم انك تفضلين ان نبقى واقفين هكذا إلى ان تصيبنا ضربة شمس؟»

صعدت إلى السيارة متمهلة وهي تفكر ساخرة، بينما السيارة تتحرك، في ان شرك العنكبوت الذي ينشره جيروم مونتكورت قد انتشر بشكل واسع كما يبدو.

وهذا سيجعل هذا الشهر، أطول شهر في حياتها.

وصلا إلى هاوت أرينياك قبل الظهر مباشرة، وكانت الرحلة مليئة بالتوتر. لم يدر بينهما الكثير من الأحاديث. لقد كان جيروم يوجه انتباهها، بأدب، إلى المناظر التي يمران بها، مشيراً إلى الأماكن الهامة التي يجتازانها. وكانت إجابات ميغ مختصرة، غالباً، ولم تسمح لنفسها باظهار أي اهتمام حقيقي إلا عند وصولهما إلى قرية أرينياك وهي التي يطلق اسمها على القصر.

كانت عبارة عن مجموعة صغيرة من المنازل قائمة على منعطف النهر. وكانت المنازل مبنية من حجارة مرشوشة باللون الوردي، ومعبد ضخم من القرون الوسطى، تحيط به أشجار الدلب.

أشار إليها جيروم قائلاً: «لقد بنى هذا المعبد أحدهم تخليداً لذكرى نصرهم على الكاثار.»

فقالت وهي ترتجف: «لقد قرأت في ذلك الكتاب أنه قد دارت ثمة معارك مخيفة في جميع الأنحاء.»

خلف القرية، كانت تقوم لوحة حائلة اللون شبه مدفونة في الأعشاب المرتفعة على جانب الطريق، تشير إلى جسر أثري. وكان ثمة، دوماً، شيء ما بالنسبة إلى عبور جسر،

كما تراءى لميغ. بحيث لا يتمكن الشخص العابر من العودة، كما تقول بعض الأساطير.

وهذا كان، بالضبط، وضعها الحالي. فهي عندما تصل إلى القصر، سيكون عليها طبعاً، ان تقوم بالدور الذي سبق ووافقت على القيام به، مهما كان رأيها في حقارة هذا الدور. فهي الآن مارغوت.

ولكنها صمّمت بينها وبين نفسها، أن لا تدع السيدة دي بريسو تعلم بذلك أو تتألم من هذه الخديعة.

وهذا الرجل الذي يجلس بجانبها لن يعلم هو أيضاً.

وخلف الجسر، كانت الأشجار متشابكة على بعضها البعض مشكلة نفقاً رقّطته الشمس. وكان الطريق يصعد بصورة ملحوظة. وأمامها كانت تبدو بوابات حديدية مفتوحة بين أعمدة حجرية ضخمة متوجة بتماثيل نسور.

دخل جيروم بالسيارة من خلال البوابات في طريق واسع إنما مهمل وقد نمت في وسطه الأعشاب. وكانت الأشجار على جانبيه في حاجة إلى قطع وتشذيب. والشجيرات تنمو بفوضوية تامة.

وعندما استدارا في منعطف طويل، أبطأ جيروم بالسيارة برفق وهو يقول: «إن أجمل منظر يبدأ من هنا.»

ولم يكن مبالغاً كما أدركت ميغ وهي تنحني إلى الأمام تشهق مسرورة. كان قصر هاوت أرينياك منزلاً ريفياً رائعاً قائماً على مرتفع وسط حديقة كبيرة مشبهاً بجزيرة من الحجر وسط بحر من الأعشاب. كان منزلاً مستطيل الشكل، ذات ثلاثة طوابق يقوم برج في كل ركن منه، وعند الشرفات الواسعة المحيطة به. وكان لون قرميد السطح الحائل،

يتناقض مع لون الجدران الحجرية المغبّرة، وكانت النوافذ المستطيلة ذات مصاريع بيضاء أشبه بأجفان العيون وكأنما أصاب النعاس هذا المنزل من جراء أشعة الشمس.

أوقف جيروم السيارة على الحصى تحت الشرفة. مشيراً إلى ميغ ان تسبقه صاعدة الدرج العريض الذي يقود إلى المدخل الرئيسي.

كان الهواء حاراً خانقاً، وارتفع صدى وطء حذائها ذي الكعب العالي على الباحة المرصوفة. وعندما اقتربت، رأت ان ما قاله جيروم عن أحسن منظر، كان فيه بعض التهكم. فقد كان القصر بمجموعه يبدو أجمل شكلاً من بعيد. أما عن قرب، فقد كان واضحاً ان الجدران بحاجة إلى إعادة طلاء، كما ان العديد من مصاريع النوافذ والأبواب في الطابق الأرضي كانت متدلية وبحاجة إلى إصلاح.

في الواقع، كان كل شيء متهالكاً وكاد يأتي عليه الزمن. وفكرت ميغ بازدراء في هذا الإرث الذي تنتظره مارغوت والذي لا يبدو عليه أنه ثروة مضمونة تستحق الذكر.

وعندما وصلت إلى الباب الضخم، فتح أمامها لتجد نفسها أمام امرأة صغيرة الحجم في ثوب قاتم وعيناها تشعان مرحبة بها.

قالت المرأة: «تفضلي بالدخول يا آنسة. إن السيدة طلبت مني انتظارك.» وتجاوزتها بنظرها لتتسع ابتسامتها قائلة: «السيد جيروم؟»

فقال: «كيف حالك، يا فيليبين؟» ونظر إلى ميغ مستطرداً: «هذه هي السيدة لانج يا مارغوت التي تدير المنزل هنا.»

فكرت ميغ، ورائحة رطوبة خفيفة تنتشر في المكان، في ما يمكن لهذه المرأة عملة ازاء هذا السقف البالغ الارتفاع والذي كانت تغطيه رسوم مختلفة باهتة. وكانت الجدران مغطاة بألواح خشبية قذرة، ومغطاة بصور يبدو أنها لوحات تمثل أسلاف السيدة دي بريسو دون شك. وكانت هذه الأفكار تجول في ذهن ميغ وهي تسير معهما نحو باب بمصراعين، فتحتهما فيليبين وهي تعلن: «لقد وصلت، أخيراً الآنسة مارغوت، يا سيدتي.»

دخلت ميغ الغرفة، وهي تجاهد للتغلب على ذعرها، لتجد نفسها في غرفة استقبال واسعة تشرف على الحدائق الخلفية. وكانت الأبواب الفرنسية الطراز التي تقود إلى الشرفة نصف مفتوحة لكي تمنع دخول أشعة الشمس الحادة. وكان على ميغ ان تحدّ النظر لكي يمكنها رؤية مضيفتها.

كانت مارغريت دي بريسو جالسة على مقعد منجّد بالساتان المخطط، قرب المدفأة الرخامية الخالية. وكانت ذات جسد منتصب نوعاً ما، مرتدية ثوباً كحلياً من الحرير وصففت شعرها الأبيض كالثلج عالياً فوق رأسها. وكانت تضع على عينيها نظارة داكنة اللون، كما كان ثمة عصا من الخيزران ذات مقبض فضي مسندة إلى كرسيها.

وبسطت لها يدها مرحبة وهي تقول: «أهلاً بك في هاوت أرينياك يا ابنتي العزيزة.» كان صوتها واضحاً حازماً بعكس مظهرها. وتابعت تخاطب مدبرة المنزل: «دعي شيئاً من النور يدخل يا فيليبين، من فضلك.»

فتحت المرأة الأبواب ليتدفق نور الشمس إلى الداخل

ليظهر الفخامة الخابية للغرفة. وكانت السيدة ما زالت قابضة بشدة على يد ميغ، لتجذبها، بعد ذلك إليها تحتضنها بسرعة واضعة الخد على الخد.

قالت وهي تتنهد بضعف: «مضى وقت طويل منذ رأيتك لآخر مرة، يا عزيزتي... طويل جداً وأنا ألوم نفسي لذلك. لأنني وأمك، لم نكن قط صديقتين، وبعد وفاة أبيك العزيز، لم أحافظ أنا على مداومة الإتصال بيننا وهذا ما آسف له الآن بعد هذا الزمن الطويل، وها ان غياب مرافقتي سيلفي قد منحني فرصة لسدّ هذه الفجوة التي حدثت بيننا.»

واستعاد ذهن ميغ صدى كلمات زوجة أبيها ايريس الحاقدة وهي تقول (إنها لم تحبني قط. فهي كانت تعتقد على الدوام بأنني لم أكن أهلاً لابن أختها المحبوب.)

وقالت ميغ برقة: «إنني أقدّر شعورك هذا.»

واشتدت أصابع السيدة دي بريسو على أصابع ميغ وهي تقول: «هل لنا أن نتخلى، إذن عن ادعائنا الأحمق بأننا نتذكر بعضنا البعض، ونبدأ تعارفنا من جديد منذ هذه اللحظة؟»

فأومأت ميغ برأسها قائلة: «إنني... إنني أحب ذلك، يا سيدتي.»

وأشرق الوجه النحيل بالابتسام وهي تقول: «إذن، ربما من الأفضل، إكراماً لأبيك، ان تدعيني عمتي كما كان يفعل هو.»

وغمرت ميغ الكآبة وعاودها الشعور بالذنب وهي تجيب متكلفة الابتسام: «سأحب هذا طبعاً.»

ونظرت السيدة إلى جيروم قائلة: «إنها فاتنة، أليس كذلك

يا عزيزي؟ إنني شاكرة لك كرم أخلاقك في إحضارها إليّ.»

فأخذ يدها يقبلها قائلاً: «صدقيني ان هذا كان مبعث سرور لي.» وارتفعت عيناه إلى عيني ميغ بنظرة لا تعبّر عن شيء، بينما تورّد وجهها خجلاً.

فقالت السيدة بصوت منخفض ذي معنى: «أرجو ذلك. وانني أعتمد عليك، يا جيروم، في ألا تدع مارغوت تشعر بالملل أثناء مكوثها هنا.» واستدارت نحو ميغ متابعة: «لقد كان ضدّ فكرتي في دعوتك، يا عزيزتي وطبعاً، كانت له وجهة نظر في ذلك. وهو ان من الصعب ان ننتظر من فتاة شابة مفعمة بالحيوية، أن تترك حياتها المليئة، لتمضي شهراً هادئاً في الريف.»

فرفعت ميغ وجهها قائلة: «أحقاً كان هذا رأي السيد مونتكورت؟ ولكنه ليس رأيي أنا. فأنا سعيدة بأن أكون معك يا... عمتي.»

فأخذت السيدة يد ميغ تربّت عليها قائلة: «هل سمعت، يا جيروم؟ علينا ان نجعلها تمضي وقتاً طيباً.»

فعضّت ميغ شفتها قائلة: «إنني لست بحاجة إلى كل هذه العناية.» وبان في صوتها اليأس وهي تستطرد: «كوني عضواً في الأسرة، يكفيني تماماً. وأنا بالطبع، لا أريد ان أزعج السيد مونتكورت أكثر من ذلك. فأنا أعلم ان وقته مليء بالعمل.» وضمّنت جملتها الأخيرة معنى ما، لتجعله يفهم من ورائها ما يشاء، وهي تنظر إلى فمه الحازم وهو يلتوي بشكل يظهر به ادراكه ما لمحت به.

قالت السيدة: «ولكن سيكون لديك كثير من الفراغ لكي

تملئيه، ذلك ان طبيبي قد أصرّ علي، بكل حماقة بالراحة صباحاً وبعد الظهر.»

فأجابت ميغ بلهجة حاسمة: «سأكون على ما يرام. أعدك بذلك.» وابتسمت للمرأة العجوز وهي تستطرد قائلة: «كل شيء هنا جديد بالنسبة إليّ، وأنا متأكدة من انني سأجد الكثير مما يشغل وقتي.»

قال جيروم بلطف: «وذلك بتتبع آثار الكاثار على الأغلب.» وانتقلت نظراته إلى السيدة قائلاً: «إن مرافقتك الجديدة، أيتها العزيزة، تدرس تاريخ غزو الكاثار.»

رفعت السيدة حاجبيها وهي تقول: «إنها فترة من التاريخ كانت محزنة ودموية، وهذا اهتمام غريب أيضاً، بالنسبة لفتاة صغيرة حلوة.» وأردفت مداعبة: «إن ما أفهمه هو ان اهتمامها ينبغي ان ينصبّ على أغاني التروبادور الغرامية.»

قال جيروم برقة بالغة: «من الواضح ان الآنسة مارغوت تخفي، في الأعماق، شيئاً غير متوقع. وانني لأتساءل عما تختزنه لنا من الغرائب.» وسكت برهة، ثم عاد يقول: «عدا، طبعاً لغتها الفرنسية الممتازة.»

وهتفت السيدة مذهولة: «أحقاً؟ ولكن رسالة أمك أوضحت تماماً ان ليس في إمكانك النطق بكلمة فرنسية واحدة.»

وغصت ميغ بريقها وهي تقول متصنعة العفوية في لهجتها: «إنها لم تسألني، في الواقع. إذ ان علاماتي المدرسية ما كانت يوماً جيدة بالنسبة إلى كل تلك الأفعال الشاذة.» وهزت كتفيها لاوية وجهها بشكل مضحك وهي

تتابع: «وقد تكون ظنت ان الأمر لم يتغيّر بالنسبة إلى لغتي الفرنسية.»

فقال جيروم: «إنها غلطة شنيعة كما أرى بالنسبة إليك يا جميلتي، إذ لا يمكن لشيء أبداً أن يؤخذ بالظن.» وظهر التهكم على وجهه وهو يتابع: «أظن ان الشهر الذي نستقبله سيكون مليئاً بالمرح والفائدة.»

فهتفت السيدة بانتصار: «أرأيت؟ لقد قمت أنا فعلاً بالعمل الصواب.» واستدارت نحو ميغ متابعة: «والآن ستدلك فيليبين على غرفتك، يا عزيزتي وعندما ترتاحين قليلاً سنتناول الغداء.»

وتنفست ميغ الصعداء وهي تنجو بنفسها من غرفة الجلوس قبل ان تتهاوى ساقاها فتسقط على السجادة الحائلة اللون.

حسناً، لقد طهرتها تلك النار الحارقة التي عانتها، لتنتعش من جديد. وكانت هذه الأفكار تراودها وهي تتبع خطوات فيليبين النشيطة صاعدة السلّم. ولكن كراهيتها لنفسها، لشعورها بأنها دخيلة في هذا المنزل، لم تخف مثقال ذرة وهي ترى نفسها تقابل هذه الضيافة والعواطف بالخديعة ودون استحقاق لها.

وكأنما لم يكف هذا، ليأتي جيروم مونتكورت فيجعل الأمور أسوأ مئة مرة، إنه كابوس لا يقظة منه، وشعرت بغصة في حلقها. إن كل تصرفاته نحوها كانت مزعجة... غامضة تماماً.

إن عليها ان تبقى بعيدة عنه قدر امكانها، هذا إذا كانت حريصة على راحتها النفسية. وقد لا يكون هذا سهلاً،

ولكنها، على الأقل ستبقى في الأمسيات بمفردها عندما يذهب هو إلى مسكنه وحياته الخاصة. وعندما اطمأنت إلى هذه الفكرة، وجدت خيالها يعود بها إلى تلك المناظر الخلابة، والتلال الشرقية من خلال الجدار الزجاجي... وأخذت تتساءل كم عدد النساء اللاتي أخذن يراقبن الفجر معه... وهتفت من الأعماق، آه... آه.

كان الألم الذي شعرت به أشبه باغماد سكين في قلبها، لا يماثل أي ألم شعرت به من قبل بعنفه المفاجىء.

وفكرت في ان هذا الشعور لا بد ان يكون الغيرة... هل هي تغار؟ ولكن هذا يعني أنها...

وفي هذه المرة، لم تكن الرجفة، التي انتابتها، بتاثير الحب، بل كانت بتاثير الخوف.

الفصل السادس

«هذه هي غرفتك، يا آنسة.» وأخرجت كلمات فيليبين هذه، ميغ من خواطرها المفزعة.

شكرتها وقلبها ما زال يخفق بعنف، متمرداً على ما اكتشفته في اعماقها منذ برهة. ودخلت غرفتها من الباب الذي ما زالت فيليبين ممسكة به مفتوحاً لها.

ووجدت نفسها في غرفة فسيحة مربعة، حملت الكآبة إلى جوها مجموعة من الأثاث المنحوت القديم الطراز وسرير كبير ذو سقف. وكانت رائحة الرطوبة العفنة أقوى منها في الطابق الأسفل. ولكن فراش السرير كان وثيراً مريحاً رغم مظهر السرير الكئيب. كما كانت الملاءات ناعمة معطرة ببعض الأعشاب العطرية الجافة كما أدركت ميغ، وقد ساورها السرور.

دخلت فيليبين تحمل بعض المناشف وهي تقول: «أرجو أن تجدي الراحة التامة هنا. إن الحمام عبر الممر بجانب الباب. وهو الوحيد في هذه الناحية من المنزل. وهكذا ستتشاركين به مع السيد جيروم مونتكورت.»

دارت ميغ على عقبيها وهي تقول مصعوقة: «ولكنه لا يسكن هنا.» وسكتت لتخفف قليلاً من الحدة التي بدت في لهجتها ثم تابعت تقول: «أعني أن له بيته الخاص به وهو ليس بعيداً من هنا، أليس كذلك؟»

فهزت فيليبين كتفيها وهي تقول: «آه، نعم. ولكنه يأتي

إلينا أحياناً لقضاء الليل.» وألقت حولها نظرة وهي تتابع قائلة: «لكي ينتهي من معاينة هذا المنزل في وقت قصير، ويجهز قائمة العمل، يستلزم هذا مجهوداً كبيراً. وأحياناً، يبدأ السيد عمله في الصباح الباكر، لينتهي متأخراً في الليل. وهكذا يجد من الأفضل أن يبقى هنا.»

وابتسمت لميغ بجرأة وهي تستطرد: «هذا إلى أن السيدة تريد منه أن يبقى. فهي تحب أن ترى رجلاً في منزلها. وهي تقول إنها تعتبره إبناً لها حيث لم ترزق المسكينة بأولاد.»

قالت ميغ دون أن يبدو عليها أي تعبير، بينما كان قلبها يغوص بين ضلوعها: «أحقاً؟»

قالت فيليبين وهي تشير إلى حبل معلق بجانب السرير: «إذا أردت أي شيء، يا آنسة، فيمكنك أن تشدي هذا الجرس، إذ عليّ أن أذهب الآن لتحضير الغداء.»

تصنعت ميغ ابتسامة وهي تقول: «إنني متأكدة من أن كل شيء على ما يرام.» وكانت قد لاحظت لتوها، القفل المزخرف المزود به الباب، ومفتاحه فيه. ربما كان صدئاً، ولكنه صالح دون شك... إذ ربما فكر السيد مونتكورت في أن يشترك معها بأكثر من الحمام.

وعندما تركتها فيليبين، خرجت هي لتلقي نظرة على الحمام. وسرها أن تجد قفلاً على الباب أيضاً.

كان حوض الاستحمام قائماً في وسط الحمام. ومدت ميغ يدها تختبر الصنبور النحاسي الثقيل ليتدفق الماء الساخن منه. وأخذت تربت على الجوانب المقواة بالحديد وهي تخاطبه: «أظننا سنكون أصدقاء.» وتمنت لو كان بإمكانها الغوص فيه حالاً، لتتخلص من هذا الشعور

بالضيق والحيرة اللذين يكتنفانها. ولكن اقتراب موعد الغداء جعلها تكتفي بغسل وجهها ويديها فقط.

وعادت تجتاز الممر لاحضار منشفة، لتقف مصعوقة أمام الباب وهي ترى جيروم مونتكورت يستدير إليها من أمام النافذة ويديه على خاصرتيه.

واستبد بها الغضب وهي تراه وكأنه يشعر بنفسه في بيته. وسألته من بين أسنانها: «ما الذي تفعله هنا؟ إن أعصابك في منتهى البرود حقاً.»

فرد عليها بسرعة وحدة وهو يشير إلى زاوية الغرفة: «لا تكوني حمقاء، فقد أحضرت لك أمتعتك. لقد أصبحت هذه عادة.»

قالت بجفاء: «أشكرك. ولكنني مازلت لا أريدك هنا.» وسارت نحو السرير تمسك بحبل الجرس وهي تتابع قائلة: «أم لعلك تريدني أن استدعي فيليبين؟»

قال بسرور: «يمكنك استدعاء من تشائين. ولكن لا تشدي الحبل بقوة وإلا سقط الحبل والجرس في يدك جاراً معه السقف كذلك. كان على فيليبين أن تنبهك إلى هذا.»

قالت: «أنا لا أصدقك.»

ضحك وهو يجيبها: «هذا ممكن. إنها كلمة المهندس.»

فتركت الحبل متمهلة وهي تقول بمرارة واضحة: «لا أظن أنه ينبغي عليّ أن اصدقك بشيء.»

قال بجفاء: «هذا كلام خشن.» وشملها بنظراته وهو يتابع: «أظن أننا، نحن الاثنين، يجب أن نعلن هدنة بيننا.»

قالت: «وعلى أي أساس؟» وواجهته برأس مرفوع وعينين متألقتين، رافضة الاعتراف لنفسها بتأثير جاذبيته

القوية، وهي تتابع: «وإلى متى؟ آه، لا تقل كما سبق وقلت من قبل (حسب ما يستلزمه الوقت).» وأطلقت ضحكة قصيرة جافة.

فقال: «بالضبط، إذ أن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن نحققها بنجاح، كما سبق ولاحظت.» ونظر حوله وهو يتابع: «أرجو ألا تكون قد انتابتك خيبة الأمل لما يحيط بك. إذ لا بد أنك سبق وتصورت أشياء أكثر حداثة وبريقاً... وثراء طبعاً.»

وهز رأسه وهو يستطرد قائلاً: «من دون نقود يوقف التدهور، يصبح بيت كهذا عبئاً أكثر منه ميزة.»

قالت بجفاء: «هذا لا يهمني بشيء، ولا أظن أن السيدة دي بريسو تحب مناقشة شؤونها الخاصة من وراء ظهرها مهما كانت صداقتك لها.»

قال وابتسامة خفيفة تلوح على زاويتي فمه: «إنني أتقبل الانتقاد. إذن فإنك لم تفكري قط في المستقبل يا مارغريت... ولم تتساءلي عما يمكن أن تفكر فيه خالتك المسنة بالنسبة إلى ميراثها المتهالك هذا. ولماذا اختارت أن تستدعيك إلى هنا في هذا الوقت بالذات؟»

أجابت بصراحة جافة: «كلا. لم أفكر في كل هذا.» ذلك أن هذا السبب لم يكن هو سبب حضورها إلى هنا... ولكن ألم يكن ذلك للمحافظة على مصالح مارغوت المادية؟ مع أنه يبدو أن هذه المصالح قد ابتدأت تتلاشى بسرعة وأحست بوخز في ضميرها لشعور خفي بالرضى لهذا الأمر. وضحك جيروم قائلاً: «إنك، تقريباً، طيبة إلى حد لا يصدق، يا جميلتي.»

كان في صوته رنة ساخرة، وهو يتابع: «إنني أتطلع إلى

ما ستؤول إليه علاقتنا في الأربعة أسابيع القادمة.»

رفعت وجهها متحدية وهي تقول: «حسناً، إنني لا أشاركك توقعاتك هذه، كما أنه ليست بيننا أية علاقات حسب ما اعتقد.»

رفع حاجبيه وهو ينظر إليها بإمعان قائلاً: «مطلقاً؟ إن ما أذكره يختلف عن هذا تماماً.»

أجابت ببرود: «ربما، إنني أذكر... لحظة أوشكت فيها أن أحيد عن الطريق القويم. ولا شيء غير ذلك.» وتنفست بعمق وهي تتابع: «في الحقيقة، أيها السيد إن عندي شعوراً غريزياً بأنك لا تشعر نحوي ولو بمجرد المودة الخالصة.»

قال بازدراء: «مودة؟ وماذا تفعل هذه الكلمة البسيطة إزاء المشاعر الجياشة بين رجل وامرأة؟ لقد كنت منجذباً إليك ليلة أمس، يا مارغريت، فلا الانكار ولا الندم ولا شيء مطلقاً يمكن أن يغير من الحقيقة شيئاً.»

وفي خطوتين، كان بجانبها. وقبل أن تستوعب تماماً ما يمكن أن يحدث، فتأخذ حذرها، وجدت نفسها بين ذراعيه.

وهتفت في اعماقها، وهي تشعر بخفقان قلبها يعلو، يا لحظي الحسن! وفجأة، إذ به يطلقها من بين ذراعيه، مبعداً إياها عنه بشيء يقرب من الغلظة، وعيناه تتألقان، وهو يقول: «دعينا إذن، من الحديث عن الطريق القويم يا صغيرتي الجميلة المنافقة. إذ أننا قد اتفقنا الآن معاً.» وتأمل في وجهها المتضرج وهو يقول: «أليس كذلك، يا عصفورتي الحلوة؟»

مشى نحو الباب. وراقبته هي بذهول وهو يأخذ المفتاح من القفل، ناظراً إليها من فوق كتفه، قائلاً وكأنه يخاطب

نفسه: «من الأفضل أن يبقى معي.» ثم خرج من الغرفة، تاركاً إياها في ذهولها ذاك، لا تدري ماذا تفعل أو تقول.

واستعانت ميغ بكل ما تملك من شجاعة، لكي تنزل إلى قاعة الطعام، مستميتة في سبيل أن تجد طريقة للاعتذار عن تناول الغداء، محتجة لذلك بصداع أو ما أشبه. ولكن هذا سيعني اعترافاً منها بانتصاره عليها مما تفضل الموت عليه.

وهكذا دخلت الحمام تغسل وجهها بالماء البارد، ثم عادت إلى غرفتها لتضع على وجهها قليلاً من مواد التجميل بشكل محتشم تخفي بذلك تضرج خديها، واحتقان عينيها الناتج عن حدة المشاعر التي تعانيها، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً لنبضها المتسارع، ولا لتوقد العواطف ذاك الذي بعثه في أحاسيسها.

فكرت، وقد ساورها الشعور بالعار، في أن يقظة مشاعرها هذه لم تكن من فعله وحده... والآن، عليها أن تواجهه... أن تتظاهر بأنه لم يحدث لها شيء. وأن كل ما في الأمر أنه قد احتضنها بين ذراعيه ولا شيء سوى ذلك. وهذا فقط لكي يثأر لكرامة رجولته التي سبق وجرحتها. وفكرت في أنها لن تكرر هذه الغلطة مرة أخرى. لقد جاءت إلى هذا المكان لكي تكون مرافقة للسيدة دي بريسو ولا شيء غير ذلك. ومن الآن فصاعداً، ستبقى معها كظلها ولن تتزحزح من قربها.

كانت تفكر في كل ذلك وقد ساد ملامحها العبوس.

هو لن يتمكن من أن يفعل شيئاً تجاه هذا مهما بلغت جاذبيته. وعاجلاً أم آجلاً، لا بد سيلمس عقم محاولاته

مطاردتها، فيعود إلى تلك المرأة التي كلمته في الهاتف، ليكرّس نفسه لها... أو إلى أية امرأة أخرى على قائمته، تاركاً إياها حرة في العودة آخر الشهر، إلى بلدها لكي تنساه تماماً.

هذا إذا استطاعت ذلك.

ونظرت إلى وجهها في المرآة، متأملة عينيها المتسعتين المضطربتين، والتوتر في خديها، وارتجاف شفتيها. وشعرت بلهفة الشوق إليه، ومرارة الهجران.

رفعت عينيها تدعو وقد انتابها كرب مبرح، وهي تتمنى ألاّ تقع في حبه.

وبرأس عالٍ، نزلت السلم، وتوقفت قليلاً تتمالك نفسها بعد ما سمعت أصواتاً تنبعث من غرفة الجلوس، وبهدوء، دفعت الباب، ثم دخلت. كانت السيدة تحتل مقعدها المعتاد. وقد رفعت يدها تضغط جبينها بضعف، بينما كان جيروم واقفاً عند النافذة حاملاً بيده رزمة من الورق.

وعندما دخلت ميغ، كانت السيدة تقول: «إذا كنت تظن أن هذا العمل ضروري، فلا بد إذن، من اجرائه.»

فأومأ برأسه وهو يضع الأوراق في محفظته، قائلاً: «سأقوم ببعض التخطيطات، ثم أضمها إلى التقرير.» وقطب جبينه قليلاً وهو يتابع قوله: «ولكن عليّ انتظار عودة ماري كلود من اجازتها لكي تطبعها، وتأخير ذلك هو مزعج في الواقع.»

قالت السيدة فجأة: «ربما، في هذه الحال، تستطيع مارغوت مساعدتك في ذلك، فهي تعمل سكرتيرة لسياسي انكليزي، كما علمت.» واستدارت نحو ميغ قائلة: «إنني

متأكدة يا عزيزتي من أنك ستكونين مسرورة إذ تنوبين عن ماري كلود.»

شعرت ميغ وكأنها استحالت إلى تمثال من الحجر. إن هذه عقبة لم تكن قد تنبأت بها، سواء هي أم مارغوت. وانتابها انفعال شديد في اعماقها.

وأخيراً، قالت ببرود: «إنني أشك في قدرتي على المساعدة، فأنا لست طابعة في الحقيقة، وإنما مساعدة شخصية. وربما مهارتي العملية لا ترتفع إلى مستوى عمل السيد مونتكورت.»

بدا وكأنها ستواجه، مرة أخرى، غضب جيروم البارد ذاك، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة، قال بعدها بابتسامة ملتوية وهو يهز كتفيه: «سيكون من دواعي سروري أن استفيد من مهارتك مهما كان مستواها.»

قالت السيدة دي بريسو: «إذن، فقد استقر بنا الأمر على هذا. والآن، فلنذهب لتناول الغداء.»

مشت أمامهما إلى غرفة الطعام متكئة على عصاها. وتبعتها ميغ وقد فارقتها شهيتها للطعام. ذلك أن الدروس المختصة بالتجارة والتي تلقتها في السنة النهائية من دراستها، لا تؤهلها لأية اعمال سكرتارية، بل لا تكاد تكون لها أية أهمية مقابل العمل المعقد الذي عليها أن تقوم به الآن.

وعندما جلست إلى المائدة. رمقت جيروم بنظرة مشتعلة من الغضب، إزاء نظرة السخرية الممزوجة بالانتصار وشيء آخر بدا في عينيه لم تستطع فهمه.

وبدا لها وكأن السيدة دي بريسو تحاول أن تدفع الواحد

منهما نحو الآخر، ولم تشعر ميغ بالسرور لهذا الخاطر الذي ساورها وهي تحتسي الحساء، وقالت: «متى تريدان مني أن أبدأ العمل؟ بعد ظهر اليوم؟»

أجاب هو بنفس الابتسامة الملتوية: «إنني لا أحب الاستعباد لكي أدفعك للعمل بهذه السرعة. إن الغد هو مناسب تماماً.»

وفكرت ميغ باكتئاب في أن الأمر بأجمعه قد تمّ بشكل أسرع مما يجب. وكانت فيليبين ترفع الأطباق، لتحضر طبقاً يحوي سمكاً مشوياً مع البازلا والبطاطا وقدرش فوقه البقدونس.

وقال لها جيروم بينما انهمكوا جميعاً في تناول الطعام: «والآن، أخبرينا ما هو بالضبط، عمل المساعدة الشخصية الذي تزاولينه؟»

فأجابت ميغ وهي تركز اهتمامها على نزع حسكة من قطعة السمك التي أمامها: «إنه متنوع.»

فعاد يقول بلطف: «إنني متأكد من ذلك، ولكن لا بد أن في إمكانك أن تذكري واحداً منها على الأقل.»

قالت: «حسناً، هنالك الأبحاث.» كانت قد سبق وسمعت مرة، مارغوت تذكر هذا. وشعرت بالارتياح إذ تذكرت ذلك وهي تتابع: «كما أنني أساعد في حل المشكلات التي تحدث في الدوائر الانتخابية.»

رفع حاجبيه يسألها: «وكيف استطعت التخلي عن مثل هذه المسؤولية لتقضي هنا أربعة اسابيع؟ لو كنت أنا رئيسك في العمل، لما قبلت ذلك.»

حدقت ميغ في صحنها وهي تقول: «إن عطلتي السنوية

هي ستة أسابيع، أما موعد العطلة وكيفيتها، فهذا راجع إليّ. وعلى كل حال، فإن العطلة البرلمانية قد أصبحت قريبة.» وتمنت، وهي تقول هذا، أن يكون كلامها صحيحاً.

قالت السيدة دي بريسو وقد بدا عليها الانزعاج: «ومع هذا، فإن من كرم أخلاقه ان سمح لك بالقدوم إليّ. إنني لم أدرك المشكلة التي قد تسببها دعوتي لك حين أرسلتها.»

ابتسم لها جيروم قائلاً: «ليس لك أن تقلقي. فأنا متأكد من أن فتاتنا الجميلة مارغوت هي أجمل السكرتيرات، فهي أغلى من أن يفرطوا بها.»

وتشابكت نظراته مع نظرات ميغ كما يتشابك السلاحان قبل المبارزة ما جعلها تجفل بينما تابع هو قائلاً: «أليس كذلك. يا جميلتي؟»

فأجابت بجمود: «لست أنا من يقرر مثل هذا.»

فضحك بهدوء وهو يقول: «إنك متواضعة اكثر من اللزوم.» وانحنى فجأة إلى الأمام وهو يتابع: «أخبرينا إذن، عن مخدومك ذاك الذي يشبه الأمير بين الرؤساء، كيف يبدو؟»

قالت السيدة مداعبة: «لاأظن ثمة أي رئيس يبدو أميراً في عين سكرتيرته، يا عزيزي. فهي عادة، تعرفه كما تعرفه زوجته.»

قال جيروم وعيناه مثبتتان على وجه ميغ المتفرج وقد بدا الغموض على ملامحه: «هذا أفضل، إن مثل هذه المعلومات الشخصية تنورنا أكثر.»

عضت ميغ شفتها قائلة: «إن اخلاقي تمنعني من أن اتحدث عن خصوصياته.»

قال ساخراً: «أوه، هيا. إنك بين اصدقاء ولا شيء مما تقولينه يمكن أن يتسرب خارج هذه الجدران. فأين الضرر في هذا؟ إنني متأكد من أنه لن ينتج عن هذا أي ضرر.»

شعرت هي باستياء داخلي، إنهما لن يطلقا سبيلها. فقد كان الاثنان ينظران إليها بتوقع، خاصة جيروم.

وبللت شفتيها الجافتين وهي تفكر، بسرعة، في ستيفن كيرتيس. وقالت: «حسناً، إنه طموح ومليء بالحيوية وشديد التحمل.» لم يكن من السهل عليها أن تصف شخصاً لم تره إلا على شاشة التلفزيون، وكل ما تعرفه عنه هو بالسماع.

سألها جيروم: «هل هو شاب؟»

أجابت: «أظنه في الثلاثينات من عمره.»

نظر إليها بحدة قائلاً: «ألست متأكدة من ذلك؟ كيف تدعين إذن، أن علاقتك به حميمة؟»

رفعت وجهها لدى ما ظنته سخرية في لهجته، وهي تقول: «إنني لم أدع شيئاً من هذا النوع، فهذه فكرتك أنت وليس لي بها علاقة.»

ورأت عينا جيروم تضيقان، وسكت لحظة ثم قال: «حتى ولو لم تكوني تعرفين عمره، فلا بد أنك تعرفين إن كان متزوجاً أم عازباً.»

قالت: «بل هو متزوج.» وتساءلت بينها وبين نفسها عما إذا كان مايزال متزوجاً حقيقة، أم أن مارغوت قد نجحت في دسائسها.

سألتها السيدة: «هل هو وسيم؟»

هزت ميغ كتفيها قائلة: «أظن ذلك. نعم.» قالت هذا رغم

أن نوع وسامة ستيفن كيرتيس لم يجذبها قط، فربتت السيدة على يدها مداعبة: «يبدو لي، يا عزيزتي، وكأن هذه الإلفة قد ولدت نوعاً من الإزدراء. حسناً، ربما ليس هذا بالأمر السيىء. هل هو الشخص الوحيد الذي اشتغلت معه؟»

أجابت ميغ: «نعم.» وفكرت في أن مارغوت قد خرجت من معهد السكرتارية العالي مباشرة للعمل مع ستيفن كيرتيس في دائرة رسمية خاصة في مدينة لندن قبل أن يصمم على ترشيح نفسه للنيابة.

قال جيروم متأملاً: «ولهذا كنت قليلة التجارب، ولا بد أن يشعر مخدومك بالشكر لي لتوسيعي آفاقك.»

أجابت ميغ وهي تدعو أن يتغير موضوع الحديث: «ربما.»

قالت السيدة وهي تشير إلى فيليبين باحضار الحلوى: «آمل أن يستطيع تدبير أموره في غيابك.»

أجابت ميغ متجاهلة ابتسامة جيروم الهازئة: «ليس ثمة من لا يمكن الإستغناء عنه.»

سألها بلطف: «ألا تخافين من أن يوظف أخرى بدلاً منك، وذلك أثناء غيابك؟»

هزت كتفيها قائلة: «هذه مغامرة كان لا بد لي من القيام بها.»

رفع حاجبيه يسألها: «مغامرة أخرى؟ يبدو أنك تحبين اقتحام الأخطار.»

بقيت الابتسامة التهكمية على شفتيها، ولكن خفقات قلبها تسارعت عندما فكرت في أن هذا لم يحدث قبل الآن. ذلك أنه من الممكن جداً أن ينكشف تنكرها هذا، لتطرد من

هاوت أرينياك بما تستحقه من الخزي. إذ أنه ليس ثمة شخص عاقل يصدق أن انساناً مليئاً بالحيوية، كما وصفت ذلك النائب، يمكن أن يتحمل عدم كفاءتها هذه، لحظة واحدة.

وفكرت في أنه يمكنها أن تخادع، ولكن إلى متى؟ ربما من الأفضل أن تطرد من المكان ولو أن فشلها سيخلق المشكلات في منزلها. ولكنها، على الأقل، ستنجو من الاغراء حيث يوجد جيروم. وإذا كانت ستتألم لأجله، فمن الأفضل أن يكون هذا بعيداً عنه.

قالت لها السيدة: «إنك تبدين هادئة جداً يا عزيزتي وحزينة أيضاً. أليس كذلك، يا جيروم؟»

فأجاب وهو يقشر تفاحة: «ربما كانت تحن إلى وطنها، مشتاقة إلى من تركتهم خلفها.»

قالت السيدة: «هذا طبيعي. يجب أن تتصلي بمنزلك، يا مارغوت، لتطمئني أمك أنك هنا وفي أمان. يمكنك أن تستعملي الهاتف الذي في غرفة المكتبة في أي وقت. وجيروم سيدلك على مكانه.»

تناولت السيدة عصاها وهي تقف قائلة: «سأصعد الآن إلى غرفتي للراحة.»

قالت ميغ وهي لا تعرف نوع العمل المفروض عليها القيام به: «هل آتي معك؟»

أجابت السيدة: «كلا، واستمتعي بحريتك كما تريدين. موعد تناول الشاي هو الرابعة بعد الظهر. وفي نفس الوقت تصل الصحف الانكليزية. وأريدك أن تقرئيها لي.» وتابعت طريقها وهي تمنحهما ابتسامة هما الاثنين.

www.rewity.com

فتح جيروم لها الباب لتتابع هي طريقها صاعدة إلى الطابق الأعلى تساعدها فيليبين، ثم استدار عائداً إلى ميغ قائلاً: «والآن، هيا إلى الهاتف.»

أجابته بحدة: «ليس ثمة ضرورة للسرعة.»

قال: «هنالك شيء واحد يجب أن تعرفيه حالاً، وهو أن ما تريده خالتك هو القانون في هذا المنزل. إنها تشعر أن أمك لا بد قلقة عليك، ومن حقها أن تطمئن. وهذا هو المهم.»

قالت بهدوء: «نعم. لم أكن أفكر في هذا.»

قال: «يجب أن تحاولي ذلك. إن السيدة حسنة الظن بك. وأنا لا أريدها أن تشعر بخيبة الأمل بأي شكل كان.»

رفعت رأسها قائلة: «وأنا أيضاً... صدقني.» فقال وقد استحالت ابتسامته إلى عبوس: «إذن، فقد تفاهمنا. تعالي معي إذن، يا جميلتي.»

وخطر لها، وهي تتبعه، أن بإمكانها أن تسير خلفه إلى آخر الدنيا، لو أراد هو. ولو أنها عند ذاك، ستكون أكبر حمقاء في العالم. وشعرت برغبة في البكاء لحماقتها هذه.

الفصل السابع

أعادت ميغ السماعة إلى مكانها وهي تتنهد. لقد حاولت الاتصال بزوجة أبيها ثلاث مرات. وفي كل مرة كان الهاتف يبدو مشغولاً. وعليها أن تعاود الاتصال في ما بعد.

وفكرت، وهي تجيل نظرها حولها في رفوف الكتب المكتظة بها المكتبة، في أن مكتبة آل بريسو، هذه تستحق هذا الاسم فعلاً. لقد كانت الجدران مرصوصة بالكتب حتى السقف، هذا إذا استثنينا الجدار الذي تقوم فيه الأبواب الفرنسية التي تفتح على الشرفة، وكذلك كانت صناديق الكتب موزعة على أرضية الغرفة. وكانت معظم الكتب مجلدة ومؤرخة بتواريخ القصر المختلفة.

مشت نحو أقرب رف، حيث أخذت تتفحص عناوين الكتب. وتملكتها الإثارة وهي ترى محتوياتها عن قرب. وركعت على ركبتيها تخرج المجلدات وتقلب صفحاتها بكل احترام وعناية.

رأت على الرف، كتاباً قد توارى وراء غيره من الكتب. ولما تناولته وجدت أنه مجموعة أشعار فرنسية قديمة. ولكن الطبعة كانت اكثر حداثة من غيرها من هذا النوع من الكتب.

ابتدأت تتصفحه تفتش فيه عن شعر الأوباد الذي سبق وقرأ لها جيروم شيئاً منه. ولكن أملها خاب إذ لم تجده في هذا الكتاب، مع أن اغلب الأشعار الموجودة كانت تتحدث عن

الحب. ورغم أن أغلب الكلمات كانت قديمة مهجورة، إلا أن تعابيرها كانت مألوفة، البحث عن الحب. الاشباع العاطفي، فقدان الحب، الذي كان أقوى وأعنف تأثيراً من غيره، كان كل هذا موجوداً. كانت مشاعر العذاب والشوق التي تتفجر بها أبيات الشعر تلك، من الجدة وكأنها حدثت أمس فقط، وليس في تلك الأيام البعيدة من العصور الوسطى.

جاء صوت جيروم من خلفها يقول: «تبدين مستغرقة جداً.»

جفلت ميغ وسقط الكتاب من يدها وهي تستدير إليه. كان واقفاً عند الباب يراقبها وقد وضع يديه في جيبيه.

قالت بخشونة: «إنك... لقد أفزعتني.»

فبدا على شفتيه التهكم وهو يقول: «هذا واضح. هل أنت عصبية دوماً هكذا.»

قالت: «ليس هذا من عادتي.»

قال بلطف: «إنني السبب إذن. إنك تحيرينني فقد كنت أظنك أقوى من ذلك، يا جميلتي.»

قالت: «إنك، إذن لا تعرفني.» وعندما رأت ابتسامته تتسع، تضرج وجهها وتابعت تقول: «أعني... على كل حال، لا شيء مهم.»

قال: «ربما كنا نختلف في بعض الأمور المهمة.»

أجابت: «أظننا نختلف بالنسبة لكل شيء.» واستعادت كتابها من حيث سقط، بيد ترتجف قليلاً، ثم نهضت واقفة على قدميها وهي تتابع: «حيث أنني أحب الانفراد بنفسي، فإنني أرجو أن تعيد إليّ المفتاح الذي سبق وأخذته من باب غرفتي، من فضلك.»

قال: «يؤسفني أن أرفض طلبك هذا. إذ أنني أظن أن من الأفضل الإحتفاظ به معي، وهذا أكثر أماناً إذ أنك، بالنسبة إلى طبيعتك المتوجسة اكثر من اللازم، قد يخطر لك أن تقفلي عليك باب غرفتك، وهذا شيء بعيد عن الحكمة لأن الأسلاك الكهربائية في هذا المنزل هي أكثر اهتراء وقدماً من كل ما في البيت، فإذا حدث وشبت النار، فإنك ستموتين حرقاً بينما نحن نحاول أن نكسر باب غرفتك ذاك.»

قابلت ميغ تلك السخرية في صوته بوجه متحجر وهي تقول: «يوجد طريقة للموت أبشع من هذه.»

قال: «لا أظن ذلك. أم أن فكرتك هذه استوحيتها من قراءتك عن مذابح الكاثار؟»

ارتعشت بالرغم منها وهي تقول: «آه، لقد قفزت عدة صفحات مخيفة بعد محاصرة مونت زيغر.»

قال: «لا يلومك أحد على ذلك.» وسكت لحظة.

ثم سألها: «ما هي الصفحات التي تقفزينها الآن في هذا الكتاب؟»

أجابت: «إنها قليلة جداً.» لم تكن، بالطبع، تريد أن تخبره بأنها تبحث عن أشعار الأوباد التي سبق وقرأ لها بعضها. وأشارت إلى ما حولها وهي تقول: «إنه الفردوس هنا. وأنا أتساءل عما إذا كانت السيدة تعرف كم تساوي بعض هذه الكتب.»

رفع حاجبيه متهمكاً وهو يقول: «هل تحسبين الأشياء الثمينة التي يمكن بيعها لتسديد الديون؟»

شعرت وكأنه قد صفعها على وجهها، فقالت: «أؤكد لك أن اهتماهي مهنياً أكثر منه شخصياً.»

قال ببطء: «إنك تذهلينني على الدوام، يا عزيزتي مارغوت إذ أرى اهتماماتك تنتقل من الكاثار إلى السياسة والآن إلى الكتب النادرة... أليس ثمة حدود لخبراتك؟»

تمتمت وقد احمر وجهها وبدا عليها الشعور بالذنب بعد إذ أدركت أنها كانت على وشك أن تفضح نفسها، وذلك بفضح مهنتها الأصلية، قالت متمتمة: «إنني لست خبيرة. إن عندي صديق خبير بالكتب القديمة وكنت أساعده أحياناً.»

فقال بهدوء: «يا لها من حياة خلابة، حياتك. ما الذي بإمكاني أن أقدمه إليك لتعويضك عن خسارتك تلك، المؤقتة طبعاً.»

كان ما يزال يبتسم، ولكن كان ثمة خطوط حول فمه، بينما ملامحه خالية من التعبير. شعرت بالضيق، وأرادت أن تخرج من هذه الغرفة لتنجو بنفسها من قربه الخطر. ولكنه كان يسد الباب بجسمه ومتعمداً أيضاً، كما شعرت.

قالت بهدوء: «ليس عليك أن تقدم شيئاً. فأنا راضية تماماً بوضعي هنا، وبجانب ذلك، فهذا الشهر مخصص للسيدة... لعمتي.»

قال بصوت أجش: «ما أجمل تفانيك في واجبك. وآمل أن تكوني ممثلة جيدة. يا عزيزتي، لأنك بحاجة لكي تكوني ذلك.»

هتفت والشعور بالذنب يبدو على ملامحها: «ممثلة؟ ما الذي تقصده؟»

وفكرت يائسة في ما إذا كانت زلة لسانها الحمقاء تلك عن الكتب قد غيرت فكرته عنها، وجعلته يعرف بأنها مخادعة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي سيقوم به بهذا الخصوص؟

ومد يده يمسك بذقنها بغلظة، يدير وجهها إليه، وهو يقول مستهزئاً: «يا للبراءة التي يبديها تضرج وجهك هذا، بينما نحن الاثنين، نعلم أن براءتك هذه مجرد رياء، أليس كذلك، يا عزيزتي؟» وانخفض صوته إلى درجة الهمس وهو يتابع قائلاً: «ما الذي تفعلينه هنا، يا مارغوت؟ ما الذي أغراك بالابتعاد عن عملك. عن مهنتك العالية وحياتك اللاهية، واصدقائك الكثر، وذلك لكي تأتي لتمضي أربعة أسابيع طويلة في هذه العزلة الريفية هنا؟»

أجابت: «لقد أرسلت السيدة تطلبني.»

ضحك بخفة وهو يقول: «وهكذا تخليت عن كل شيء وكل شخص على الفور. إن الشخص يكاد يظن أنك هاربة من شيء ما. من وضع لم تعودي تستطيعين التحكم فيه، مثلاً.»

تراجعت خطوة إلى الخلف وهي تقول: «إن هربي ذاك إنما مجرد تصورات منك، أيها السيد، ولا أدري ما الذي يجعلني أخضع لكل هذه الأسئلة الدقيقة منك.» وارتفع صوتها قائلة: «إن هذا ليس من شأنك أبداً.»

قال: «إنك مخطئة، ذلك أن كل شيء يؤثر على السيدة مارغريت يهمني. فكوني حذرة.»

أطلقت ضحكة سريعة وهي تقول: «تباً، لقد سبقك أوكتافيان إلى تحذيري، والآن أنت أيضاً تحذرني. لقد ابتدأت أشعر بالأسف لحضوري. والآن، أرجو المعذرة، فأنا بحاجة إلى بعض الهواء النقي.»

وتوجهت نحو الباب المؤدي إلى الشرفة، راجية ألا يكون مقفلاً، ولكن مقبض الباب استدار في يدها بسهولة، وتبعها صوت جيروم قائلاً بخشونة: «وأنا أيضاً أشعر بالأسف

لذلك. إنني أتمنى من كل قلبي، يا جميلتي، لو لم أكن قد قابلتك قط. ولكن الأوان قد فات الآن.»

لم تنظر إلى الخلف، ولكن صدى كلماته ما زالت تلاحقها وهي تخرج إلى الشمس. لقد قال إن الأوان قد فات... نعم، لقد فات الأوان حقاً بالنسبة إليها، وذلك عندما أصبح قلبها أسيراً، بصورة دائمة، لجيروم مونتكورت الذي لم يكن ليضمر لها سوى الإزدراء.

كان الجو حاراً والنسيم ساكناً عندما نزلت ميغ من الشرفة إلى الحديقة. ولم يكن هذا المكان ذو الجو الخانق بالذي يصلح لجلوسها، رغم رغبتها في الانفراد بنفسها، كانت تفكر في ذلك، وهي تسير مفتشة عن مكان ظليل تجلس فيه.

وبعث في نفسها الحزن أن ترى الوهن يدب في هذه الحديقة بنفس النسبة التي يدب فيها في المنزل، وذلك أثناء سيرها بين الأجمات والأعشاب البرية المتطاولة والتي تحتاج، كما أخذت تحدث نفسها، إلى جيش لتشذيبها وتنظيمها. واستدارت حول زاوية ثم توقفت شاعرة بالسرور وهي ترى المكان الذي قادتها إليه خطواتها. ذلك أن شخصاً ما، قد غرس هنا، منذ وقت بعيد، ورداً من أنواع ممتازة ما زالت تتذكرها منذ الطفولة. كانت ورداً غرسها أبوها بنفسه في حديقته وغمرها بحبه، وهو يغذيها ويعتني بها كأحد أولاده.

رفعت ميغ وجهها تتنشق عبير هذه الورود وقد غمرها الحنين. لقد اجتثت ايريس زوجة أبيها كل هذه الورود، بعد وفاته، لتغرس مكانها ورداً مهجنة عديمة الرائحة مقاومة

لأمراض النباتات، وهي ترد على احتجاج إبنة زوجها باقتضاب: «إن هذه أقل إزعاجاً.»

جلست ميغ على المقعد الحجري وقد عادت بها الذكريات إلى زواج أبيها من ايريس بعد سنوات من ترمله، لقد تزوجها في خلال أسابيع قليلة من تعارفهما، غامراً إياها بعواطفه المحمومة التي لم تسمح له برؤية عيوبها. وفكرت ميغ بحزن، في أن شعوره بالوحدة هو الذي جعله يغرق في حبها بهذه السرعة والعنف، وكان في هذا درس لها هي أيضاً، يجب ألاّ تنساه مهما كان وضعها.

وحدثت نفسها بأنها، هي أيضاً، تشعر بالوحدة، وجيروم مونتكورت هو الرجل الوحيد الذي أظهر اهتماماً بها. ولكنه إنما كان يسلي نفسه لا غير وعليها ألاّ تنسى ذلك. فهي ترى بنفسها النهاية التعسة لمثل هذا الحب.

واعترفت بأن ايريس قد أسعدت أباها في السنوات الأخيرة من حياته، وهذا فقط ما يجعلها شاكرة لها. إذ أن هذه، ما ان صارت أرملته ووضعت يدها على أملاكه، حتى تغيرت كلياً، وقضية المربية والكوخ الذي تريد الآن اخراجها منه، متجاهلة وصية زوجها لها، هذه القضية هي مثال لتصرفاتها تلك.

قالت تناجي أباها وقد برح بها الحزن: «آه، يا أبي. لماذا لم تترك هذه الوصية كتابة بدلاً من أن تثق بزوجتك إلى هذا الحد؟ فلو كنت فعلت، لما كنت أنا هنا الآن، على وشك أن أصبح محطمة القلب...»

وغامت أمام عينيها تفاصيل الورود وهي تغطي وجهها بيديها. تنشج بالبكاء كما لم تبكِ منذ سنوات، ذلك أن الضياع امتزج بإثارة عواطفها من ناحية جيروم.

«مارغريت.»

ولأن التفكير في جيروم كان مستحوذاً على كيانها، فقد خالت هذا الصوت من تصوراتها. ولكن اللمسة الخفيفة على كتفها جعلت الأمر حقيقة. ورفعت ناظريها إليه، وهي تشهق، لتراه واقفاً كتمثال قاتم في وهج الشمس.

قالت: «ماذا تريد؟»

تأملها عابساً وهو يقول: «لقد طلبت مني السيدة أن أبحث عنك، ما الذي حدث؟ هل أتتك أخبار سيئة من بيتكم؟»

كانت قد نسيت المخابرة الهاتفية التي فشلت في إجرائها، فتحركت وهي تزيح يده عن كتفها قائلة: «كلا. لا شيء هناك.»

قال: «ليس ثمة من يبكي بهذا الشكل للاشيء.» وأخرج من جيبه منديلاً نظيفاً ناولها إياه، ناظراً إليها وهي تمسح الدموع عن وجهها. واشتمت في المنديل رائحة الكولونيا التي يضعها بعد الحلاقة، وكبحت آهة كادت تفلت منها إذ كانت تدرك أنه يحدق النظر فيها.

قال بلطف: «لا أظن أنك كنت صادقة تماماً معي، يا جميلتي.»

وكاد يتوقف قلبها عن الخفقان وهي تقول: «ماذا تعني؟»

فأجاب: «لأنك سبق وقلت ان ليس ثمة رجل في حياتك، في بلادك.» واشتدت لهجته وهو يتابع: «ولكن هذا كان كذباً، لأن مثل هذه الدموع هي لأجل رجل. أليس كذلك؟ أجيبيني يا مارغوت. أخبريني بالحقيقة، هذه المرة.»

صعدت إلى شفتيها كلمات تحوي إنكاراً غاضباً ولكنها سرعان ما ردتها وهي تفكر في أنه، إذا هو ظن أنها تحب

شخصاً آخر فإن هذا يمنحها ستاراً تتوارى خلفه... عذراً هي في حاجة ماسة إليه لكي تبقيه بعيداً عنها.

أبعدت شعرها عن وجهها وهي تنظر إليه قائلة بلهجة واضحة: «نعم. إنني أبكي لأجل رجل أحبه. إنني أعترف بذلك.» ولقد كانت هذه هي الحقيقة، على كل حال، وعلى جيروم أن يفسر كلامها هذا كما يشاء، فهذا شأنه هو. وتابعت تقول متحدية: «هل أنت راضٍ الآن؟»

قال لاوياً شفتيه: «طبعاً، ما دمت جعلتك تؤكدين لي ما سبق وعرفته.»

قالت: «هل لك أن تتركني وحدي الآن؟»

هز رأسه قائلاً: «هذا مستحيل. ونحن الاثنين نعرف هذا.» والتقط كتاب الشعر الذي كان قد سقط منها على العشب بجانبها، وناولها إياها وهو يتابع قائلاً: «إن السيدة تريد منا أن نذهب غداً إلى مدينة ألبي، لنسوي مسألة السيارة.»

قالت بحدة: «شكراً، ولكن في استطاعتي أن أقوم بهذا العمل بنفسي. إنني لا أريد حارساً بجانبي.»

رفع حاجبيه قائلاً: «وكيف ستذهبين إلى هناك؟»

أجابت: «أظن هنالك مواصلات عامة.»

أجاب: «نعم، هنالك باص، ولكن ليس غداً.» فعضت شفتها قائلة: «سأستعمل، إذن، سيارة السيدة. فإن أحد الأسباب لقدومي هنا هو قيادة سيارتها.»

قال: «نعم، هذا صحيح. ولكنني أريد أن أطمئن شخصياً إلى أهليتك في قيادة سيارتها.»

قالت وهي تهب واقفة: «كيف تجرؤ على هذا القول؟ إنك

تعلم أن بإمكاني قيادة السيارة. وقد كنت أقود سيارة عندما تقابلنا.»

قال: «كلا، بل كنت واقفة في الطريق في انتظار شجرة تسقط عليك، يا جميلتي. وهذا لا يدل على شيء. إن خالتك إذن، تريدني أن أصحبك غداً لنتأكد من أن كل شيء على مايرام. والآن، إذا كنت لا تريدين مواصلة هذه المجادلة العقيمة، فأنت حرة في الذهاب إليها.»

وعندما استدارت ميغ مبتعدة عنه، سمعت صوته وهو يضيف قائلاً بهدوء: «هذه المرة.»

وفي غرفة السيدة دي بريسو، كانت مصاريع النوافذ مغلقة، وسرت ميغ للعتمة الخفيفة التي تسود المكان والتي تستر آثار الدموع على وجهها، وكانت السيدة مستلقية على السرير، مستندة إلى الوسائد خلفها، وقد غطت ساقيها بشال من الحرير. وكانت قد وضعت نظارتها القاتمة جانباً بينما بدا الارهاق على وجهها.

حيّت ميغ بابتسامة باهتة وهي تقول: «تعالي واجلسي بجانبي، يا عزيزتي.» ومدت يدها تقبض على يد ميغ بشدة وهي تستطرد: «إن وجودك هنا حسن جداً إذ منحنا الفرصة لنكون اصدقاء. أليس كذلك؟»

قالت ميغ بسرعة: «نعم... نعم، طبعاً.» ولكن شعورها بخداعها اشتد وقعه على نفسها.

عادت السيدة تقول: «إن هذا يجعلني سعيدة.» وسكتت برهة ثم استطردت قائلة: «إن جيروم كان متشككاً بالطبع، بالنسبة لطريقة حياتك في انكلترا، والفرق بين عمرينا. وقد شعر أنه كان عليّ أن أستشيره قبل أن أرسل بدعوتك.»

قالت ميغ: «يبدو أن السيد جيروم مونتكورت يريد أن تكون كل الأمور، هنا، حسب مشيئته.»

قالت السيدة بعد فترة صمت: «لقد كانت أسرتنا وأسرته دوماً جارتين. وقد كنت... سعيدة جداً حين عاد ليقيم في منزله، فقد بقي المنزل سنوات طويلة دون رجل. وكانت عودته نعمة عليّ، لأنني صرت استطيع أن استعين بخبرته في خطتي لاصلاح ما أفسده الاهمال الطويل في هذا المنزل.» ابتسمت وهي تتابع: «وهو قد جدد حيويتي أيضاً.»

وحدقت في ميغ بعينيها الكليلتين وهي تستطرد: «ربما تتساءلين عما جعل الأمور تتأخر طيلة ذلك الزمن، ولماذا لم تكن الاصلاحات الضرورية تجري في المنزل كما يجب.»

قالت ميغ: «قد خطر لي هذا فعلاً.»

قالت السيدة ببطء: «لم تكن تلك رغبتي. ولكن زوجي لم يكن ليسخو بالمال في سبيل اصلاح المنزل، ذلك أنه عندما أدرك أننا لن نرزق أولاداً، وأنه سيكون آخر فرد في سلالته، بدا وكأنه قد فقد كل اهتمام بالمنزل، وكأنما كان يريده أن ينمحي من الوجود. ولم يكن بإمكاني اقناعه بغير ذلك، بأية وسيلة.»

قالت ميغ بحرارة: «إن هذا أمر معيب حقاً. كيف أمكنه التصرف بهذا الشكل؟»

فهزت العمة كتفيها وهي تقول: «أظن أن المسألة كانت بالنسبة إليه، كما قالت السيدة دي بومبادور (من بعدنا الطوفان). لقد كانت اهتمامات هنري منصرفة إلى أمور أخرى.»

قالت ميغ: «ولكن من الممكن أن يصبح مثل هذا المكان رائع الجمال.»

فقالت العمة بقوة: «وسيصبح كذلك. إن جيروم هو خبير في الاصلاح والترميم. وسيعود قصر هاوت أرينياك متألقاً كما كان. وسترين.»

قالت ميغ بحذر: «أرجو ذلك.»

فقالت العمة وهي تلوي شفتيها: «لا يبدو عليك الاقتناع بهذا الكلام، يا عزيزتي. ولكن، عليك أن تثقي به، إنني أريدكما أن تكونا صديقين، وهذا شيء يهمني جداً.» ونطقت بجملتها الأخيرة بالحاح مفاجيء.

فقالت ميغ بهدوء: «إنني لا أعرف، في الحقيقة، ما إذا كان هذا ممكناً.»

اشتدت أصابع العمة على يدها وهي تقول: «هل الأمر سيىء إلى هذا الحد؟ لقد كان صوت وقع خطواتك وأنت قادمة إلى غرفتي، مضطرباً، كما تراءى لي. وكذلك يدك كانت ترتجف قليلاً. هل كان جيروم يضايقك؟»

عضت ميغ شفتها وهي تقول: «يمكنك أن تقولي هذا.» ومع أنها مسحت عينيها من الدموع جيداً، فإنها سرّت لعدم استطاعة السيدة أن ترى وجهها.

ضحكت السيدة دي بريسو وقالت بعطف بالغ: «إن ذلك الفتى لا يمكن تقويمه، فهو مولع بالاغاظة. إنه يشبه جده في صفات كثيرة، كما يحمل اسمه أيضاً.» وتنهدت وهي تتابع: «ولكنه طبعاً، لا يضمر لك أي ضرر. ويجب أن تثقي بكلامي. كما أن لقاءكما الغريب ذاك أثناء تلك العاصفة، كان شاعرياً تماماً. ألا تظنين ذلك؟»

حنت ميغ رأسها تجيبها: «لقد كنت في حالة من الرعب بحيث لم ألحظ ذلك.»

تركت السيدة يد ميغ برقة، وهي تقول: «ولكن شكراً على سلامتك في ذلك الحين. وطبعاً الشكر لجيروم. إن الصينيين يعتقدون أنك إذا أنت انقذت حياة أحد، فإنك ستبقى مسؤولاً عن تلك الحياة إلى الأبد.»

أرغمت ميغ نفسها على الابتسام قائلة: «حسناً. إن في إمكاني العناية بنفسي. وهذا ما كان عليك أن تهتمي به، إذ أن هذا الوقت هو وقت راحتك، كما أظن.»

تجهمت ملامح السيدة وقالت: «لم يكن من السهل عليّ هذا النهار، أن أنام، وذلك لشدة سعادتي بوجودكما، أنت وجيروم، معاً تحت هذا السقف.» وتنهدت وهي تتابع قائلة: «إن عقلي مشتت.»

سألتها ميغ برقة: «هل تريدينني أن أقرأ لك؟ إن الصحف لم تصل بعد، ولكنني وجدت كتاب شعر رائعاً في المكتبة.»

بدا وكأن السيدة جفلت قليلاً وهي تقول: «أحقاً؟ أيمكن أن تعطيني إياه؟»

ووضعت ميغ الكتاب بين يديها، فأخذت هذه تقلبه وتتحسسه برقة بالغة. ثم قالت: «ثمة قطعة من الشعر تبتدىء بكلمات هي (حبي الوحيد، حبيبتي التي تسعدني) هل يمكنك أن تجديها، يا عزيزتي؟»

واستلقت إلى الخلف مغمضة عينيها، عندما ابتدأت ميغ تقرأ بشيء من الصعوبة في البداية، وتعثر لسانها ببعض الكلمات والجمل الصعبة المهجورة. وعندما أنهت أول قطعة اتبعتها بأخرى، وهي تخفض من صوتها شيئاً فشيئاً،

إلى أن انتظم تنفس السيدة دي بريسو معلناً استغراقها في النوم.

وتركت ميغ الكتاب يسقط في حجرها، ومضت تتأمل ذلك الوجه النبيل أثناء سكونه، ورأت أن هيكل السيدة قد تحدى الأيام. ولم يكن هنالك شك في أنها كانت رائعة الجمال في زمن مضى. ورأت كذلك، أثار دموّع الوحدة والعزلة، على خديها.

ألقت نظرة على الكتاب، وهي تتساءل عما إذا كان فيه ما يذكرها بزوجها الراحل، لما أحدثه من ردة فعل عندها حينما ابتدأت هي تقرأ لها فيه، ربما كان هذا الكتاب له. أو ربما كان يشير إلى علاقة غرامية غامضة... وفتحت الكتاب على الصفحة الداخلية البيضاء لتجد كتابة، بخط اليد بهت لونها بمرور الزمن ولكنها ما زالت مقروءة. وكانت تقول، ببساطة: (إلى مارغريت. مِن كل قلبي... ج.)

وحدقت ميغ في هذا الحرف (ج) الموقعة به هذه الكتابة. ولكن السيد دي بريسو، زوجها، كان اسمه هنري. وأغلقت الكتاب وقد ساورها شعور بالضيق في أنها أقحمت نفسها في مسألة خاصة جداً. ذلك أن هذا الكتاب كان يعني شيئاً خاصاً للعمة، ولكن ليس كما تصورت هي. وبدا عليها خيبة الأمل. إذ بدا لها، تبعاً لما سبق وأخبرتها هذه المرأة المسنة، أنها قد تركت، وشأنها، فترة طويلة. هل معنى هذا أن السيد دي بريسو قد أهمل زوجته الانكليزية بنفس الطريقة التي أهمل بها منزله...؟

وعاودها صوت أوكتافيان الخشن يقول بنفور وكراهية (انكليزية) أوكتافيان الذي خدم جيروم الأول... جيروم

مونتكورت الآخر إلى أن ترك هذا، المنزل دون عودة.

ازدردت ريقها، وهي تتذكر بعض الكلمات الغرامية الملتهبة، والتي تشكو الحرمان وفقد الحبيب التي قرأتها منذ فترة، بصوت عال. هل كان هذا ما حدث؟ كانت تتساءل بذهول، عما إذا كان جد جيروم قد وقع في غرام جارته الجميلة الوحيدة، ليتخلى عنها، بعد ذلك، متملصاً من كل ارتباطاته. لم تكن تعرف ما الذي حدث بالضبط بالنسبة لهذه الورطة، في ذلك الحين، ولكنها تعرف أن الطلاق، في ذلك الحين، لم يكن سهلاً أبداً.

هل كان هذا هو في ان يرغم جيروم الجد على أن يهجر منزله ليعيش في المدينة؟ وهل هذا هو سبب كراهية أوكتافيان المرة لكل ما هو انكليزي؟ وهو أن سيده المحبوب أرغم على الرحيل بسبب تورطه مع انكليزية؟

كان كل هذا معقولاً إلى درجة مروعة، وهي تفسر عاطفة السيدة دي بريسو وثقتها في جيروم الحالي.

عادت إلى ذاكرتها كلمات فيليبين (إنه كالابن الذي لم تحصل عليه قط.) وتوقف قلبها عن الخفقان وهي تفكر في أنها هي، طبعاً، كانت ابنتها الروحية المنسية، أو كما تفترض السيدة بها على الأقل. فتاة استدعيت إلى هذا المكان بالذات، وفي هذا الوقت بالذات، ولكن، لأي سبب؟

ازدردت ريقها وهي تفكر في كلمات السيدة، (أريدكما أن تصبحا صديقين. وهذا شيء يهمني جداً)

وفكرت ميغ في أنها ربما كانت مبالغة في تصوراتها، ولكن هل من الممكن أن يكون وراء دعوة السيدة لمارغوت غرضاً أعمق مما تصورته هذه؟

الابن الذي لم تنجبه قط، والفتاة التي فقدت الاتصال بها، جمعتهما معاً تحت سقف واحد، كما أعلنت العمة، منذ برهة، وهي في غاية الابتهاج، لتلقي بالواحد منهما بين ذراعي الآخر مدة أربعة أسابيع كاملة تحت شمس لانغيدوك الملتهبة. هل كانت هذه خطة السيدة السرية؟ الحلم الشاعري بإعادة خلق الماضي؟ وللاطمئنان إلى أن ميراث هاوت أرينياك سيستمر إلى الجيل القادم؟

إذا كان الأمر كذلك، فهو جنون محض محكوم عليه بالفشل لعدة أسباب، السبب الأول هو، بالطبع، الوضع المخادع لميغ والذي يسبب لها ندماً هائلاً. أما السبب الثاني فهو، الصديقة القديمة التي اتصلت به عند وجودها في مسكنه. ذلك أن الدفء الذي كان في لهجته وهو يتحدث إليها، لا تخطئه. اذن، كان واضحاً من أن ثمة علاقة عاطفية متينة تربط بينه وبين المرأة الأخرى.

ولكن، إلى أي حد يعرف جيروم خطة العمة إذا كانت موجودة فعلاً خارج تصوراتها؟ وإذا كان يعرف فهل هو يقبل مثل هذا الزواج المدبر، من غريبة؟ وذلك في سبيل أن يصبح سيد قصر هاوت أرينياك؟ وذكرت نفسها، وهي ترتجف، كيف ابتدأ محاولاته لإيقاعها في حبه.

وبعد، ما الذي تعرفه هي عنه؟ في الحقيقة، لقد كان غامضاً منذ البداية. كان جسماً قاتماً إنبثق عن العاصفة بنفس الخصائص التدميرية.

لقد كانت دوماً في انتظار ذلك الحب الذي سيطرق قلبها بكل رقة وعذوبة، متطوراً من صداقة، تغذيه ميول مشتركة. وليس مثل هذا الشعور الكاسح المعذب المحطم للقلب

والحافل بالرغبة والذي هو لا يشاركها به، وليساعدها الحظ. كانت تلك هي الحقيقة المرة التي عليها أن تتمسك بها مهما كلفها ذلك، دون النظر إلى أي اعتبارات أخرى.

شوقه، لهفته، كل هذا لم يكن لها قط، بل كانت لمارغوت ترانت وعندما تتذكر هي هذا، يمكنها عند ذاك، أن تحفظ نفسها بأمان.

وبهدوء، وضعت الكتاب على المنضدة بجانب السرير، لتخرج، بعد ذلك، من الغرفة على رؤوس أصابعها.

الفصل الثامن

أنهت ميغ قهوتها، وكذلك آخر فتات قطعة البسكوت التي قُدِّمت معها، فقد كانت مسرورة بجلوسها هناك تحت المظلة في ذلك المقهى على الشارع، لتراقب المارة. ولكن الوقت قد حان الآن لكي تذهب لملاقاة جيروم، كما كان مقرراً، خارج الباب الجنوبي للمعبد.

وتنهدت وهي تشعر بالانفعال يجتاحها. لم يكن بامكانها تجنب مرافقته هذا النهار، فقد أدلت برأيها في إمكان استقلالها، وذلك على مائدة العشاء، في الليلة السابقة، ولكن السيدة كانت شديدة العناد في أن يرافقها إلى مدينة آلبي قائلة لها: «فقط، بالنسبة لأول مرة يا عزيزتي.»

وقد استمتع جيروم بخيبتها هذه، ثم تمنى لهما ليلة طيبة بعد العشاء مباشرة، ليخرج بعد ذلك. ولم تسمح ميغ لنفسها بالتكهّن بالمكان الذي قد يكون ذهب إليه، أو من عسى أن يكون مرافقاً، في هذه الليلة الهادئة.

وكان الاضطراب لا يزال يتملكها وهي تنطلق من أرينياك في الصباح الباكر، تقود سيارة الستروان التي ما زالت، لشدة العناية بحالة رائعة رغم قدمها.

لقد قال جيروم، أخيراً، بأدب: «إذا شئت أن تصلي إلى آلبي هذا النهار، يا جميلتي فعليك ان تتابعي القيادة دون ان تستمري في اعتباري مراقباً عليك.»

وانتهت الاجراءات المعتادة بالنسبة للسيارة المستأجرة

بسرعة دون ان يغفلوا عن تقديم التهاني لها بنجاتها من هذا الحادث.

وفكرت عابسة في نجاتها هذه التي كانت أشبه من الذي ينجو من المقلاة، ليقع في النار.

وأثناء ليلة انتابها فيها الأرق، أخذت تقلّب في ذهنها ما إذا كان من الأفضل ان تكشف اللعبة التي تقوم بها، قبل ان يزداد الضرر.

ولكن تفكيرها في الوقع الذي سيكون لهذا، والذي لا يمكن تجنبه، منعها من ذلك. كان عليها ان تبقى على صمتها لأجل مصلحة مربيتها... وكذلك لأجل السيدة دي بريسو، إذ ان العمة ستكون في غاية الاستياء عندما تعلم ان ابنتها الروحية قد استعملت الابتزاز لكي تجعل فتاة أخرى تحل مكانها في مرافقتها، وستتألم أيضاً. ويكفي مقدار الحزن المرتسم على وجهها الآن.

ربما لا تريد ان تعلم ان مارغوت الحقيقية فتاة أنانية تبحث عن المال، وتحب رجلاً متزوجاً، وأن هذا هو السبب في هذه التمثيلية الخادعة. وان من الأفضل ان تبقى العمة على هذا الوهم أطول وقت مستطاع. باستثناء الوقت الذي ستتورط فيه مع جيروم في المستقبل. عليها ان تذكر دوماً هذه المقررات. إلا إذا كان الأمر كله مجرد تخيلات منها...

خاطبت نفسها بعناد، إنها لا تظن ان الأمر إنما هو تخيلات منها. ونظرت في ساعتها، ثم أشارت إلى النادل ليحضر لها قائمة الحساب. وقبل ان تنصرف إلى موعدها بجانب المعبد، كان عليها ان تتصل هاتفياً من المقهى. وكانت العمة قد سألتها ليلة أمس عما إذا كانت قد أجرت

الاتصال الهاتفي مع منزلها في لندن، وقد دلّتها على الهاتف الذي في الصالة. وكانت تخشى من ان تسمع العمة حديثها بأجمعه بما قد يتضمنه أشياء محرجة، ولكنها شعرت بالارتياح إذ وجدت الخط مشغولاً مرة أخرى.

ولما حاولت مرة أخرى، هذا الصباح من المقهى، استغربت لأن تجد نفس النتيجة. ولما حاولت ان تتصل بمربيتها قابلها الخط، هنا أيضاً، بعدم الجواب.

حدثت نفسها، وهي تضع السماعة، بأنها قد حاولت على كل حال، ولكن كان عليها ان تكرر ذلك من القصر أثناء راحة العمة في غرفتها، إذا أمكنها ذلك.

كان جيروم في انتظارها عند المدخل الجنوبي لذلك المعبد.

سألته: «هل تراني تأخرت؟»

فأجاب: «إن مواعيدك دقيقة بشكل رائع.»

سألها وهو ينظر إلى المعبد ببنائه الضخم ذي القرميد الأحمر: «هل تريدين ان تري متحف رسومات لوتريك؟»

دهشت ميغ وقالت: «ظننت أننا راجعان إلى المنزل مباشرة؟»

رفع حاجبيه قائلاً: «لماذا؟ إنها مدينة رائعة الجمال.»

فأجابت: «إنني متأكدة من ذلك، ولكن هذا لا يعني أننا نحن الاثنين، بامكاننا ان نمضي النهار هنا.»

فسكت لحظة، ثم قال: «هل نعلن بيننا هدنة، يا مارغريت، لكي أريك المدينة؟»

وفكرت في أنه لم يحاول استنكار قولها ذاك. ونظرت إلى ابتسامته الهازلة وعينيه المتألقتين، شاعرة بقلبها يتوثب بين أضلعها.

قالت: «حسناً، فليكن ذلك.»

كان متحف الرسام لوتريك قائماً في باليه دي لابيربي وهو قصر قديم.

قالت ميغ وهي تنظر إلى رسوم المولان روج الصاخبة: «إنني أشعر تقريباً وكأنني أجتمع بأصدقاء قدماء.»

سألها: «أتعجبك؟»

فأومأت برأسها قائلة: «نعم، ربما لأنها مألوفة لديّ. ولكنني في الحقيقة، أفضل تلك الرسوم التي سبق ورأيناها قبل هذه والتي تمثل أفراد أسرته وأصدقائه. انها أكثر هدوءاً وتأثيراً في النفس.» وتنهدت وهي تتابع: «إنني أتساءل عما كانت ستؤول عليه حياته، لو لم يكن معاقاً.»

فقال: «ربما، عند ذاك، كان سيعيش حياة تقليدية فيتزوج وينشيء أسرة، فتصهر بعض عواطفه المحمومة التي وضعها في فنه هذا، لتتلاشى في نشاط حياته الاعتيادية تلك.»

قالت ميغ بشيء من الاكتئاب: «ربما الأفضل لو كان أمضى حياة سعيدة.»

فقال: «ولكن النهايات السعيدة ليست ممكنة، على الدوام، ألم تتعلمي ذلك بعد؟»

فكرت، وهما يخرجان إلى أشعة الشمس مرة أخرى، في أنها لم تتعلم ذلك رغم أنها سائرة فعلاً إلى تلك النهاية غير السعيدة.

أخذها إلى القسم القديم من المدينة، حيث جالت فيها تكتشف انحاءها بسرور بالغ، خاصة وهما يجتازان الأزقة

الضيقة ببيوتها الخشبية، وكانت البيوت الجاثمة على حافة النهر مبنية كلها من الحجارة الحمراء الوردية.

قال جيروم: «إن مدينة آلبي أعطت اسمها طبعاً، للذين غزوا المدينة، وهكذا صاروا يدعون البيجنزيان. وقد بقي بعض الكاثار وآثارهم في هذه المدينة بالرغم من المذبحة الكبرى المدعوة مونت زيغر.»

قالت متأملة: «ومع ذلك، لا يبدو أثر للحزن هنا، يبدو ان مدينة آلبي قد تصالحت مع ماضيها.»

فقال: «كل شيء يمحوه الزمن.»

هزت رأسها ساهمة... نعم، وكذلك يمحو الزمن آلام الحب، وتعاسته، وحماقاته...

قال بنشاط: «والآن، إلى الغداء.»

فعضت شفتها قائلة: «وهل لدينا الوقت لذلك؟ أليس علينا ان نعود إلى البيت؟»

قال متصنعاً الفزع: «في مثل هذا الوقت من النهار؟ عليك ان تتعلمي التفكير كامرأة فرنسية، يا عزيزتي.»

أمسك بذراعها يقودها بين جموع السائحين المتسكعين على الأرصفة.

أجابته بجمود: «لا أظن ما قلته ضرورياً، فأنا سأعود إلى دياري بعد فترة قصيرة.»

أجاب: «ربما استطعنا اقناعك بالبقاء مدة أطول.»

هزت رأسها قائلة دون ان تنظر إليه: «لا أظن ذلك.»

قال: «إنك تقولين ذلك الآن، ولكن من يعلم ما يخبىء القدر لنا نحن الاثنين؟»

تجاهلت كلامه، وبقيت على اصرارها قائلة: «على كل حال، أنا لست جائعة.»

قال باختصار: «حسناً، أنا جائع، ويمكنك ان تجلسي وتتفرجي علي.» ومد يده يجذبها بثبات انما برقة في الوقت نفسه، مما لم يدع لها خياراً إلا بالسير معه.

أخذها إلى مطعم صغير في شارع جانبي ضيق مزدحماً بالزبائن. ووجدت نفسها تجلس على مقعد مستطيل بجانب جيروم حيث أخذا يستطلعان أنواع الطعام المخطوطة باليد على القائمة.

كانت ميغ قد قررت ان تبقى بمعزل عن كل هذا، ولكن رائحة الطعام الآتية من المطبخ حرك شهيتها. وبارشاد جيروم، وجدت نفسها أمام طبق من الرافيولي، تبعه طبق من لحم الخروف مطبوخاً بالثوم والتوابل.

وعندما انتهت من الطعام، قالت: «يبدو انني لا أقوم بشيء سوى الأكل.»

قال وعيناه تبتسمان لها من تحت أهدابهما الكثيفة: «ان زيادة قليلة في الوزن تناسبك. وإنما ليس كثيراً، طبعاً.»

شعرت بالدم يتصاعد إلى وجهها، ورفعت كأس العصير إلى فمها تداري بذلك اضطرابها.

قال لها: «ما أسرع ما يتضرج وجهك. ما كنت متوقعاً ذلك.»

قالت: «وما الذي كنت تتوقعه؟»

بقي صامتاً لحظة، ثم قال: «كيف يمكنني ان أشرح الأمر؟ صحيح ان ما كانت تتذكره السيدة دي بريسو عن طفولتك جعلني... أهتم بالأمر، ولم أشأ لها ان تأمل خيراً من إعادة الصلات.»

سألته: «هل ظننت بأن أملها سيخيب؟»

هز كتفيه قائلاً: «كان هذا ممكناً، ذلك أنها لم ترَك منذ كنت طفلة، وكان انطباعها عنك غير حسن.»

قالت: «تباً... هل كانت تصرفاتي مخيفة؟»

قال: «انها تتذكر أنك كنت مدللة. أكثر نضجاً من سنك. تتطلبين الصدارة في كل شيء وتركيز الآخرين اهتمامهم في شخصك وتفرضين أراءك وحدها في كل أمر.»

قالت باشمئزاز: «وبكلمة مختصرة، طفلة مفسودة، ولكنني أظن ان تلك مرحلة من العمر يمرّ بها كل شخص.»

وفي نفسها، فكرت في ان البعض لا يتغير تماماً مثل مارغوت الأنانية عديمة الرحمة، ورفعت إليه نظرها وهي تقول: «لا أظنك تحاسبني على هذا، أم ان هنالك شيئاً آخر؟»

وبقيت ملامح وجهه خالية من التعبير وهو يقول: «وماذا يمكن ان يكون هناك؟ إن كل ما يهمني هو حماية السيدة مارغريت. فقد لاقت من الشقاء في حياتها ما يكفي.»

وحدقت لحظة في غطاء المائدة الأبيض النقي، ثم قالت: «هل تعرف زوجها؟»

هز رأسه بالنفي قائلاً: «أعرفه بالسماع فقط. فقد توفي منذ سنين كثيرة.» ودلّت لهجته على أنه يعتبر وفاة هنري دي بريسو ليس أمراً ذا شأن.

قالت ميغ بعناية: «فهمت ان زواجهما لم يكن ناجحاً.»

أجاب عابساً: «لقد كان كارثة، لقد كان حبهما عبارة عن افتتان عابر اشتعل ثم خمد في خلال سنة واحدة، تاركاً إياهما مقيدين الواحد بالآخر. لقد كان هنري يكره الحياة في الأرياف، وهكذا ترك مارغريت وحدها في القصر لتعتني بإرثه، بينما أمضى هو حياته بين ميادين السباق

والنوادي. وكان يعود إلى البيت عندما يحتاج إلى نقود فقط. وكانا، أحياناً، يصلان إلى تسوية سرعان ما يتملكه بعدها الضجر، فيرحل.»

سألته بشيء من الدهشة: «هل أخبرتك هي بكل هذا؟»

تردد قليلاً، ثم قال: «كلا... أخبرتني ببعضها فقط.»

ورشفت ميغ بعض القهوة وهي تفكر في ان استنتاجاتها بهذا الشأن لم تكن بعيدة عن الحقيقة. وإذا لم يكن جيروم قد استقى معلوماته الحزينة هذه عن زواج العمة مارغريت من جده، فمن أين سيستقيها إذن؟

قالت: «لقد أوضحت لي العمة السبب في تعرض القصر للاهمال، بهذا الشكل وهو... حسناً، إن تصميمها على ان تقوم الآن باصلاحه، هي فكرة حسنة.»

قال بلهجة جافة: «إنها ممتازة.»

قالت: «إنني أتساءل عن السبب الذي جعلها تنتظر حتى الآن.»

هز كتفيه قائلاً: «الأفضل ان تسأليها هي عن ذلك.» ولم تكن لهجته مشجعة. أخذت تتابع بأصبعها الصور التي تزين صحن فنجانها، لحظة، ثم عادت تقول: «أظن... أظن ان العمة تحاول ان تعيد الماضي إلى الحاضر نوعاً ما.» وازدردت ريقها وهي تتابع: «هل تعرف أنت هذا؟ هل يمكنك ان تفهم قصدي؟»

قال دون ان يظهر على وجهه أي تعبير: «أظن ذلك.»

تابعت تقول: «شعرت بأنك تعلم.» وجف فمها فجأة وهي تتابع: «يجب ان أخبرك بأن ما تريده العمة هو مستحيل. ولا يمكن أن يحدث.» وازدردت ريقها مستطردة: «أظن هذا واضح.»

قال جيروم وهو يشير إلى النادل طالباً قائمة الحساب: «ليس بك حاجة لهذا.»

قالت: «بل ثمة حاجة، ذلك ان الأمر سخيف لا يقبله عقل.»

قال بابتسامة صغيرة: «سخيف جداً يا جميلتي، فلا تزعجي نفسك بالنسبة إلى ذلك بعد الآن.»

قالت: «ولكن كان عليّ ان آتي على ذكر ذلك لأنه إذا كان عليّ ان اشتغل معك بطباعة تلك الأوراق، فسنكون مرغمين على قضاء وقت طويل معاً.»

قال جيروم وهو يعد الأوراق المالية: «كما تشائين، وسنبدأ العمل اليوم بعد الظهر.»

وغاص قلب ميغ ولكنها تمالكت نفسها لتقول: «أردت بهذا ان يكون ثمة أساس مهني لعلاقتنا من الآن فصاعداً.»

قال: «كعلاقتك مع مخدومك؟»

عضت شفتها قائلة: «طبعاً.»

قال: «أتريدين ان تخبريني أنك اشتغلت مع هذا الرجل كل ذلك الوقت وهو الشاب الوسيم ذو النفوذ، دون ان تسألي نفسك عما تراه يكون كحبيب؟ أم انه لم يلحظ جمالك وجاذبيتك، أو انه لم يحاول ايقاظ مشاعرك الراقدة؟»

قالت وهي ترتعش: «صدق ما تشاء. إن ما أريد ان أقوله، هو انني لا أريد ان أشعر بأي ضيق أثناء عملي معك، وإذا لم توافق على هذا، فإن أي تعامل بيننا في حكم المنتهي، وسأخبر العمة بالسبب.»

فالتوى فمه وقال: «عجباً، أتظنينها ستستاء؟ ربما بالنسبة إلى أحلامها الحمقاء عنا، سيسرّها ان تعلم انني

أريدك.» والتقت عيناه بعينيها وهو يتابع: «إعادة الماضي إلى الحاضر. أليس هذا كلامك؟»

أجابت بصوت متهدج: «ولكن، ربما لن تعجبها حقيقة أنك إنما تريد ان تسلّي نفسك فقط، خصوصاً إذا أنا أخبرتها ان عندنا، نحن الاثنين ارتباطات أخرى.»

ساد الصمت فترة وقد توترت شفتاه، ولكنه لم ينكر ما قالت. وأخيراً قال: «هل أنت متأكدة، يا جميلتي، ان بامكانك المحافظة على هذا الوضع... المهني، فنبقى بعيدين عن بعضنا البعض أثناء الساعات التي سنمضيها معاً؟»

قالت: «نعم.» وارتفعت دقات قلبها، وهي تفكر بمرارة، في انه ليس أمامها خيار آخر.

ضحك قائلاً: «ما أشد ما أنت متأكدة من ذلك.» وشملها بنظراته ساخراً وهو يتابع: «إنني أراهن، يا عزيزتي انك أول من سيخرق هذا القرار الذي تفرضينه.» وانخفض صوته إلى درجة الهمس وهو يتابع: «إنك أنت ستأتين إليّ، يا مارغوت، لأنك لن تستطيعي مقاومة نفسك، ونحن الاثنان نعرف هذا.»

ووقف، فوقفت هي الأخرى تواجهه قائلة بصوت أجش: «إنني أقبل تحدّيك هذا، أيها السيد. وأنا أنذرك بأنني ساقاومك بكل جهدي.»

قال بلطف: «إذن، فقد انتهت الهدنة.» وأخذ يدها يرفعها إلى شفتيه يقبل أطراف أصابعها، ثم قال: «والآن، فلنعد إلى هاوت أرينياك ولنجرب قرارك هذا.»

ثم قفل راجعاً أمامها إلى سيارته.

جلست هي إلى جانبه فريسة للاضطراب وتعدّد

المشاعر، بعيدة عن الشيء الوحيد الواضح، وهو ان علاقتها مع جيروم لم تكن فقط مسألة ضبط النفس، وإنما حماية النفس.

ومن شدة استغراقها في ورطتها هذه، لم تلحظ أنهما قد استدارا متجاوزين طريق أرينياك. ولم تدرك الأمر إلا بعد ان وصلا إلى الطريق المؤدية إلى منزله، عند ذلك استقامت في جلستها قائلة بحدة: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

أجاب: «لأحضر آلتي الطابعة إذ ليس هنالك واحدة في القصر. ذلك ان السيدة مارغريت ما زالت تفضل الكتابة اليدوية.»

كان هذا تعليلاً معقولاً، ولكن ميغ تصلبت في جلستها وهي تقول: «هل علينا ان نبدأ العمل اليوم؟ ألا يمكنك إحضارها غداً صباحاً؟»

ابتسم لها ساخراً وهو يقول: «سأمضي هذه الليلة في القصر، فإن عندي غرفة هناك. إنني متأكد من ان فيليبين أخبرتك بذلك. ثم انه كلما استعجلنا بعلاقتنا المهنية، كان ذلك أفضل. وأنا أعلم انك توافقين على ذلك، يا جميلتي.»

أوقف السيارة قرب المنزل، وفتح بابها وهو يقول هازلاً: «هل تفضلين انتظاري هنا؟»

أجابت باقتضاب: «هذا حسن.»

وعندما توجه نحو الباب، برز أوكتافيان، ومن ثم وقف الاثنان يتحدثان. لا بد ان الموضوع كان مستعجلاً لأن أوكتافيان كان يتكلم بقوة مشيراً بيديه وقد بان الاهتمام على وجهه.

وبعد لحظة، رأت جيروم يستدير ليلقي نظرة على

السيارة، عابس الوجه. وحدثت نفسها بأنهما يتحدثان عنها، وتملكتها موجة من الامتعاض، ففتحت باب السيارة، ثم ترجلت منها، مبتعدة عنهما في حركة التفاف واسعة حول زاوية المنزل حيث دوالي العنب تغطي جانب الوادي. ووقفت تحدّق في تلك الصفوف المنتظمة للدوالي، مصغية إلى طنين صرصار العشب.

سمعت صوت خطوات على الحصى خلفها، فالتفتت لترى أوكتافيان قادماً نحوها وهو يحمل مجرفة على كتفه. كان وجهه عابساً، وعيناه القاتمتين يتجلى فيهما الشك والعداء تحت حاجبيه الكثين. وعندما ألقت عليه التحية، أجابها بإيماءة بسيطة من رأسه.

قالت: «أوكتافيان، إن سيدك هو الذي أراد احضاري إلى هنا، وليس لك ان تقلق. انني أعرف سبب خوفك وأريد ان أخبرك بان الأمر لن يكون كالسابق، ليس كما كان مع السيد جيروم الجد.»

وسكتت، ولكنه لم يقل شيئاً، ولم يبد على وجهه ما يشجع. وتابعت كلامها بشيء من اليأس: «إنني لن أعود إلى هنا... إلى المسكن هذا، مرة أخرى، وفي آخر الشهر سأعود إلى انكلترا نهائياً.» وحاولت ان تبتسم وهي تتابع: «أما السيد جيروم فلن يرحل عن هذا المكان. وإذا حدث هذا فلن أكون أنا السبب.»

ولكن ملامحه لم تتغير، بل قال بصوت خشن: «سواء ذهب هو أم بقي فإنك، أيتها الانكليزية، تجلبين التعاسة معك. انني أعلم هذا، فأنا أرى وأسمع.» وأومأ برأسه متابعاً: «ليس لك عمل هنا، وعلى السيد جيروم ان لا يهتم بك أو

بالألم الذي تسببينه له.» وتقبضت يداه وأخذ يلكم الهواء وهو يقول متمتماً: «إنها التعاسة على الدوام.» وألقى عليها نظرة استياء أخيرة، ثم تابع طريقه إلى الكروم.

أخذت ميغ تعزي نفسها وهي تستدير مبتعدة، بأنها حاولت جهدها معه، وارتفع نظرها إلى الطابق الأعلى من المسكن حيث النافذة الواسعة والتي لن يكتب لها أبداً ان تراقب الفجر منها، ثم وقفت مصعوقة. ذلك أنها لمحت شخصاً واقفاً وراء الزجاج... شخصاً كان يتطلع إلى أسفل، ليبتعد بعد ذلك، بسرعة وكأنه لا يريد ان يظهر لأحد. كانت لمحة واحدة أدركت فيها ان ذلك الشخص كان امرأة، وأنها لم تكن بيرث مدبرة المنزل.

وارتفعت خفقات قلبها، حسناً، ما الذي كانت تتوقعه على كل حال؟ فقد قالت بنفسها انهما، هما الاثنين، لهما ارتباطاتهما... ولكن القول شيء، والحقيقة شيء آخر تماماً.

وعندما وصلت إلى السيارة، كان جيروم يغلق صندوق السيارة وقد بدا على وجهه الاستغراق في التفكير. وتساءلت ميغ، بمرارة، عما إذا كان ثمة عجب في ذلك. كانت تريد ان تسأله، أما كنت تتوقع قدوم صديقتك؟ وهل تراها غضبت منك عندما رأتني برفقتك؟ ولكن كرامتها منعتها من ذلك. ان من الأفضل لها ألا يعرف أنها رأت ضيفته أبداً، فكيف تحدثه عن اهتمامها بها؟ ذلك كله سيفضح مشاعرها نحوه بالتأكيد.

ولا عجب أن لا يرحب بها أوكتافيان. وشعرت بغصة في حلقها، إذ انه من المفروض أنه يتقبل وجود تلك السيدة في

غرفة النوم ولا يريد ان يعكر عليها أحد وجودها ذاك، خاصة هي بالذات.

حسناً، ليس له ان يقلق، لأنني أعلم الآن دون أدنى شك، ان لا أمل لي بجيروم ولم يكن ذلك من قبل قط.

خاطبت نفسها بهذه الكلمات وقد اكتنفت نفسها وحشة لم تشعر بمثلها في حياتها من قبل.

www.rewity.com

الفصل التاسع

كان الجوّ في السيارة مشحوناً بالتوتر. فقد كان جيروم تائهاً مع أفكاره دون أن يحاول البدء بأي حديث مباشر. وكانت ميغ بدورها شاكرة هذا، فقد منحها الفرصة لتتمالك أجزاء نفسها المشتتة.

ما أسرع ما تتغير الأشياء. فكرت في ذلك وقد ساورتها الرعشة. لقد كانا صديقين تقريباً، منذ اقل من ساعة فقط، والآن، ها هي الهدنة تنتهي لتشرع الأسلحة من جديد.

رمقته خلسة. كانت ملامحه متوترة، فاذا كان يفكر في تلك المرأة الموجودة في منزله، فان افكاره لم تكن تجلب إلى ملامحه أي قدر من السرور. فهي كانت تحس بذلك الغضب الكامن فيه، مشبهاً بركاناً منتظراً انفجاره في أية لحظة.

ربما كان ظهورها في المنزل قد احدث بينهما صدعاً لا يمكن إصلاحه. ولكن هذا لم يكن ذنبها هي.

واخترق صوته افكارها المضطربة، يقول: «ما الذي كنت تقولينه لأوكتافيان؟»

أجابت: «كنت أحاول طمأنته، ولكنني لم أفلح.» وسكتت لحظة ثم أردفت: «إن اوكتافيان لا يريد اعادة الماضي، كذلك.»

صمت جيروم لحظة، ثم قال: «يجب أن تغفري له ذلك. لقد كرس نفسه لجدي كلياً منذ الوقت الذي كانا يجوبان فيه

التلال وهما صبيان. وكان لا يرى المستقبل، واعادة المنزل الى الحياة، إلا من خلال هذه المصاحبة والعمل الشاق، وتوسيع الكروم ورؤية اولادهما ينمون معاً حين يأتون.» وتنفس بحدة وهو يتابع: «ولكن خيبة الأمل ملأت نفسه مرارة.»

قالت ببطء: «ولكنه يلوم العمة على كل شيء، وهذا ليس عدلاً.»

قال: «لماذا تقولين ذلك؟»

أجابت: «لقد كانت متزوجة. وجدك كان عازباً. ربما كان عليه ان يتمالك نفسه ويفكر مرتين قبل أن يتورط معها. فان خسارته اقل من خسارتها هي.»

قال بهدوء: «هذه وجهة نظر هامة. ولكن الزواج، ولم يحطم الزواج. كان قد انتهى قبل أن يتدخل هو. فهو لم يحطم أية علاقة، وهذا فقط ما لا يمكن اغتفاره، يا جميلتي، ألا تظنين هذا؟»

قالت: «ربما ليس لنا، نحن الاثنين، أن نصدر حكماً بهذه القضية... من هذه المسافة البعيدة.»

أجاب: «حسناً، إن اوكتافيان يظن العكس. انه يشعر بأن خالتك كان يجب ان تتذكر اليمين الذي أقسمته يوم زواجها، حتى ولو لم يفعل زوجها ذلك.» وهز رأسه متابعاً: «ربما كان ثمة شيء من أخلاق الكاثار مازال معششاً في تراب وحجارة لانغيدوك.»

بقيت ميغ صامته لحظة، ثم قالت: «ولكن، عندما حنثت بيمينها، لماذا لم ترحل؟ فتهجر بيت الزوجية إلى الأبد؟ كان في استطاعتها ان تؤسس حياة جديدة مع جدك... لم

يكن ثمة حاجة إلى أن يكونا، هما الاثنين، تعيسين.»

قال بصوت ثقيل: «لم يكن الأمر بهذه البساطة، وقد لا يكون أبداً. لقد اوضح هنري دي بريسو انه لن يدعها تذهب. وأن ذلك الطلاق كان خارجاً عن البحث، فقد كان يتنافى مع تقاليد الأسرة، وكان عازماً على إرغام مارغريت على البقاء في رباط الزوجية.» وسكت برهة، ثم تابع: «وقد اكتشف انها كانت حاملاً. وقرر هنري أن الطفل طفله.»

جمدت نظراتها سائلة: «أكان ذلك... ممكناً؟»

هز كتفيه قائلاً: «كان ما يزال مصراً على استعمال حقوقه الزوجية.»

سألت: «وكيف امكنها تحمل ذلك؟»

أجاب: «لم يكن لها خيار في هذا الأمر. وفي كل مرة كان هنري يعود فيها إلى منزله، كان يظهر الندم البالغ، عازماً على وضع علاقتهما على أساس جديد فعال. وهذا جعلها تشعر ان من واجبها البقاء معه... واعادة المحاولة. ولم يستطع جدي أن يقنعها بتغيير رأيها. وكان على استعداد للمغامرة بكل شيء وتحمل اية فضيحة في سبيل ان يأخذها اليه. ولكن اهتمامها الأول كان بالطفل القادم.»

قالت ميغ: «ذلك لأن هنري ربما كان على حق، وهذا ما كانت تخشاه. وماذا حدث في النهاية؟» وبللت شفتيها بلسانها وهي تتابع: «ولكن، ظهر انه لم يكن هناك طفل.»

قال: «كلا، ليس هذا، وانما، لسخرية الأقدار، حدث لها حادث. لقد تزحلقت على السلالم، ذات يوم، وكانت وحدها في المنزل، لقد كاد هذا الحادث أن يكلفها حياتها كما كلف الجنين حياته.» وسكت لحظة، ثم عاد يتابع: «ولم يغفر

هنري لها ذلك قط، طبعاً، وكانت نهاية ذلك الزواج. وهكذا، ضحت بنفسها وبسعادتها عبثاً.»

سألته: «وماذا جرى لجدك؟»

أجاب: «لقد كان قد اقسم انه، إذا هو رحل، فلن يعود أبداً، وكان صادقاً في قسمه، مع أنه لم يلم مارغريت لاختيارها ذاك.»

وسكت لحظة، ثم استطرد: «وهكذا ذهب إلى باريس أولاً، ثم إلى الخارج لإدارة املاك في جزر المارتينيك آلت اليه من ناحية أمه في الأسرة. وعندما كان في اجازة، قابل جدتي، ومن ثم وضع اساساً لحياة جديدة لنفسه.»

سألت: «وهل كانا سعيدين؟»

أجاب: «كانا قانعين تماماً. وربما هذا الأساس لحياة زوجية تدوم طول الحياة، هو اكثر اماناً من غيره.»

شعرت ميغ بغصة في حلقها وهي تفكر، ربما... وبدا لها وكأن هذا هو الاختيار الثاني لها بعد الحب... وبقيت هذه الفكرة تتملكها بصمت، إلى أن وصلا إلى هاوت ارينياك.

علمت أن جيروم سيجعل مكتبه المؤقت، في غرفة المكتبة.

نظرت حولها. وفجأة، بدا لها أن الجدران المغطاة بالكتب تظهر عداء نحوها، وكأنها تكاد تطبق عليها لكي تأخذها سجينة. ونظرت بتقزز إلى الآلة الكاتبة الكهربائية المصقولة التي احضرها من السيارة ووضعها وسط طاولة فسيحة.

خطر لها أن هذه هي آلة التعذيب في سجنها هذا.

قالت له: «انني لم استعمل مطلقاً هذا النوع من الآلات

الكاتبة من قبل.» وكانت الآلة الكاتبة التي كانت تستعملها للمراسلات، في المكتبة العامة حيث كانت تعمل، مختلفة تماماً عن هذه. فقد كانت من النوع الذي يحمل باليد. ولكن، كان في امكانها، على الأقل التعامل معها.

قال وهو ينفض يديه، بعد أن أوصل الآلة بالطاقة الكهربائية: «ليس ثمة مشكلة، فأساس المواصفات واحد.» ثم فتح محفظته يخرج منها ملفاً كان فيه صفحات سجلت عليها ملاحظات بخطيده الحاد الواضح. كانت رزمة تحوي مئات من الصفحات كما لاحظت ميغ وقد سادها الاكتئاب. نظر في ساعته قائلاً: «سأعود بعد ساعة لأرى كيف يسير العمل معك.»

وفكرت ميغ وهي تراه يغلق الباب خلفه، أن هذا أفضل من أن يقف مشرفاً عليها يراقبها وهي تتحسس طريقها مرتبكة وقد غمرتها التعاسة. وتذكرت إحدى قصص الأطفال عن فتاة صغيرة سجنت في برج، حيث أمرت بأن تغزل القش محيلة اياه إلى خيوط ذهبية.

وحدثت نفسها بأنها تعرف الآن ماذا كان عليه شعور تلك الفتاة الصغيرة، في ذلك الحين. وتناولت الورق والكربون، ولكن لم يكن ثمة معجزة تنقذها، كما أنقذت تلك الفتاة... لقد أدركت ذلك حالما عاد جبروم، كانت مازالت محاطة بالقش، دون اثر للخيوط الذهبية.

كانت تصرف بأسنانها وهي تحاول السيطرة على مفاتيح الآلة الكاتبة التي كانت تقفز في كل الاتجاهات، وهي معها تلاحقها، وذلك لأخف لمسة منها، لها.

كانت مجموعة الصفحات التي انهتها، صغيرة بشكل

محزن عندما سمعت الباب خلفها، يفتح وتظاهرت هي في التركيز على العمل الذي بين يديها. ولم يكن بينهما أي احتكاك ولكنها شعرت بحرارة جسمه تلفحها وبأنفاسه تحرك شعرها.

ازدردت ريقها وهي تشعر بجفاف في حلقها، ثم جازفت برفع ناظريها إليه، لترى حاجبيه يرتفعان وهو يقول بصوت جامد: «هل هذا كل ما أنجزته؟»

منحته ابتسامة أكثر تالقاً من المعتاد وهي تجيب: «أخشى أن يكون الأمر كذلك. لقد سبق وأخبرتك بأنني غير معتادة على هذا النوع من الآلات الكاتبة.»

قال بصوت ذي معنى: «ولا أي نوع آخر، كما يبدو.»

قالت: «كما انني لم أجد ممحاة ولا أي سائل للتصحيح.»

أجاب: «لأن هذا ليس ضرورياً عند الطبع على هذا النوع من الآلات الكاتبة. لأن فيها زراً تضغطين عليه هكذا، فيصحح الكلمة بنفسه.» وضغطه أمامها يريها كيف.

قالت ميغ بصوت أجوف: «فهمت.»

قال: «آمل ذلك.» وسكت ليقرأ في احدى الصفحات، ليقول بعد ذلك عابساً: «يبدو أنه من السهل إرضاء مخدومك.»

عضت على شفتها قائلة: «انه لا يشكو. كما انني سبق وحذرتك من أنني لست طابعة جيدة.»

قال بابتسامة متهكمة: «من الواضح ان مواهبك الأخرى تفوق مهارتك العملية.» ووضع الورقة التي كان يعاينها، من يده، وهو ينظر في عينيها قائلاً: «يوماً ما، يا عزيزتي، يجب أن تخبريني بما تقومين به من عمل مقابل استحقاقك لراتبك.»

قالت بخشونة: «أظن أن هذا ليس من شأنك.»

قال بعنف مفاجيء في صوته: «ما الذي تقومين به، يا مارغريت، إذ تضيعين حياتك بهذه الطريقة؟ إنني لا أفهمك. إنني أقسم بأنك أهل لأشياء كثيرة.»

دفعت ميغ كرسيها إلى الخلف، مما جعلها تشعر بقربه منها، وهي تقف على قدميها. وقالت: «انني آسفة اذ لم أعش تبعاً لتوقعاتك.»

قال جيروم برقة وهو يمد يده يزيح بها خصلات شعرها عن جبينها المندى: «آه، ولكن هذه هي بداية فقط.» وابتسم لها متابعاً: «ربما غداً يكون عملك أفضل.» وبدا أن الكلمات تتلكأ في الجو بينهما، غامضة، واعدة، مقدمة كل الاحتمالات، تماماً كما كان يقصد بقوله ذاك.

شعرت بقلبها يشتد خفقانه لشدة الاثارة وداخلها نوع من الرجاء الأحمق... لتدرك ببساطة، أنها انما بذلك، تغذي نفسها بالآمال الحمقاء.

وتراجعت إلى الخلف وقد رأت نفسها على حافة الهاوية، ثم قالت بهدوء: «أرجو المعذرة، فان العمة قد تكون بحاجة إلي.»

قال بجفاء: «انك، على الأقل، تلبين احتياجاتها بما يفي بالغرض.»

قالت وهي ترفع رأسها: «إن هذا هو الغرض من وجودي هنا.»

قال وهو ينظر اليها بعينين بدت فيهما لمعة خاطفة: «أحقاً؟ أرجو ذلك، يا مارغريت. صدقيني أنني أرجو ذلك حقاً.»

سألته: «ماذا تقصد بكلامك هذا بالضبط؟»

هز كتفيه قائلاً: «انني لا أريد ان تتألم السيدة من أي شيء قد يبدو لها في ما بعد...»

قالت: «أرى أنها... تعني لك شيئاً كثيراً، اليس كذلك؟»

أجاب: «نعم، ولكن ليس هذا بسبب الماضي فقط. فأنا على استعداد للقيام بأي شيء لكي أجنبها التعاسة من أي نوع كانت.» وسكت برهة، ثم قال: «إذن، فكوني على حذر، يا مارغريت.»

هزت رأسها قائلة: «انني لا أريد ان أسبب لها أي أذى.» وأطلقت ضحكة صغيرة مقتضبة وهي تتابع: «من الغريب انه يبدو أنني... أنني أنا أيضاً يهمني أمرها.» وفكرت، وهي تتجاوزه خارجة من الغرفة، بأنها، تحسد العمة هذه، تحسدها من كل قلبها... ذلك انها، على الأقل، عندما أحبت، قد بادلها حبيبها الحب.

وأمضت بقية الوقت، إلى أن حان وقت العشاء، تقرأ مراسلات العمة لها، وكتابة مسودات الأجوبة، لتكتب بعد ذلك، الأجوبة كاملة جاهزة لامضاء السيدة دي بريسو. وشعرت بشيء من الغرابة وهي ترى نفسها في خضم الشؤون الخاصة للسيدة، بهذا الشكل.

ولكن السيدة المسنة طمأنتها إلى أن كل هذا كان من الأعمال العادية التي على مرافقتها الغائبة السيدة ألجو ان تقوم بها.

ولكن ميغ شعرت، وهي تبدل ملابسها لتناول العشاء بتعاسة بالغة من جراء الشعور بالذنب. ذلك ان ابنة شقيقتها الحقيقية هي من لها الحق في ان تتدخل بشؤونها

الخاصة. ولكنها هي مجرد فتاة غريبة، وهذا يجعل الفرق هائلاً.

ولكنها متأكدة الآن من أن أيا من توقعات مارغوت المتفائلة عن امكان وراثتها لها، ليس فيه مجال من الحقيقة، ذلك ان دخل السيدة لا يكاد يفي بنفقاتها، وأن الشيء الوحيد الذي له قيمة هو هذا القصر. أما من أين تأتي نفقات كل هذه الاصلاحات، فلا أحد يعلم. ذلك ان جيروم قد يخدمها محبة منه لها ومن دون مقابل، ولكن، ماذا عن النجار والكهربائي ومتعهد التمديدات الصحية، والبنائين؟ انهم يريدون نقوداً.

ولكنها ذكرت نفسها، وهي ترتدي ما اختارته من ملابس، بأن هذا ليس من شأنها ولا دخل لها فيه. وعندما يبتدىء العمل في القصر، هذا إذا ابتدأ، فانها ستكون قد رحلت منذ مدة طويلة، وابتعدت كلياً عنْ هذا المكان.

واختارت ثيابها، للعشاء، بعناية، متعمدة عدم ارتداء ذلك الثوب العسلي بذكرياته المؤلمة، لتلبس تنورة سوداء بسيطة مع قميص حريري أبيض بياقة عالية وكمين طويلين.

كانت تتوقع أن تكون السيدة قد سبقتها إلى غرفة الجلوس. ولكن، عندما وجدت الغرفة خالية، رأت أن هذه فرصة مناسبة لتكلم زوجة ابيها في لندن هاتفياً. ورفعت السماعة تدير الرقم، وتنفست الصعداء حين وجدت تجاوباً هذه المرة.

وجاءها صوت زوجة ابيها واضحاً، إنما يشوبه التذمر: «نعم. من المتكلم؟ ماذا تريد؟»

أجابت ميغ وهي تنطق بالاسم مترددة: «هذه أنا... مارغوت.»

هتفت المرأة بحدة: «مارغوت... أوه، تباً لك، لقد اوشكت حقاً على الجنون. أين أنت يا عزيزتي؟»

أجابت ميغ بحذر بالغ: «لماذا، في فرنسا طبعاً. أرادت السيدة دي بريسو مني أن أتصل بك لأطمئنك إلى وصولي بخير وأمان.»

قالت ايريس وقد بدا عليها الارتباك، للحظة: «السيدة دي... أتعنين أن هذه أنت يا ميغ؟ لماذا لم تقولي ذلك بدلاً من الادعاء بأنك مارغوت.»

أجابت ميغ: «لأن هذا صعب بالنسبة للظروف. ماذا حدث؟ هل هنالك شيء؟»

أجابت: «اتسالين؟ انها تلك المرأة اللعينة زوجة ستيفن كيرتيس. لقد هجرته تاركة له الأولاد مثيرة امامه كل أنواع الفضائح في الصحف. لقد توافدت علي كل أنواع الاتصالات الهاتفية من مختلف الصحف، وكلها تريد أن تتحدث الى مارغوت. حتى انني رفعت السماعة لكي احظى ببعض الأمان. لقد نشرت صور، وتحدثت العناوين عن ذلك الحب... صدقيني، ان الأمر كان كابوساً رهيباً. وكان على طفلتي المسكينة مارغوت ان تختفي عن الأعين. أما ستيفن كيرتيس نفسه فيبدو ان القضية قد عصفت بعقله ففقد توازنه كلياً.» وضحكت المرأة غاضبة وهي تتابع: «أتصدقين انه جاءني بكل شجاعة إلى بيتي محضراً، إليّ أولاده مصراً على ان تعتني بهم مارغوت إذ ليس لديه مكان آخر يضعهم فيه؟ وأولئك الصحافيين

الفضوليين امضوا كل النهار يبحثون في ذلك. وقد قلت له ان مارغوت ليست هنا ولكن هذا لم يمنعه من أن يتركهم لدي قائلاً ان عليه ان يذهب للبحث عن زوجته.» وعلا صوت ايريس ثائراً وهي تتابع: «اما الأولاد، فلم يكفوا عن الصراخ الى ان فقدت عقلي، عند ذلك خطرت المربية ترومان في بالي، فاتصلت بها قائلة ان ثمة حالة مستعجلة. فأقبلت بسرعة.»

جلست ميغ على ذراع الاريكة وهي ترتجف، ثم سألتها: «اتعنين ان الأولاد ما زالوا عندك؟»

أجابت: «كلا، كلا. لقد اخذتهم المربية الى الكوخ، ولكن عليه أن يتدبر امرهم بشكل آخر، إذ ليس المفروض بي أن... ان الأمر ليس كما لو كانت مارغوت هنا أو حتى انني اعرف متى ستعود. خصوصاً بعد الأشياء الفظيعة التي قالتها زوجته كيرين عنها في الصحف مما يجعلها عرضة للذمّ والتشهير.»

قالت ميغ: «أشك في ذلك.»

أجابت: «هذا ما قاله لي المحامي عندما كلمته في ذلك.» وتنهدت وهي تتابع: «لن يكون بامكاني أبداً ان أرفع رأسي بين الناس بعد هذا، وأنا هنا وحيدة تماماً، وعلي أن أفكر بكل ذلك. لقد كان من الأنانية أن تختفي مارغوت هكذا. خصوصاً وقد كان عليها ان تعرف ماذا كان سيحدث.» وسكتت لحظة، ثم تابعت: «عليك أن تعودي حالاً إلى البيت، يا ميغ. انني بحاجة اليك. على الأقل لتردي على المخابرات الهاتفية وتفتحي الباب.»

قالت ميغ: «انني آسفة، لأن هذا مستحيل. فهم بحاجة إلي

هنا كذلك، حيث أقيم، فهذه المشكلات التي عندك لم يكن لي فيها يد، ولا أريد ان اتورط فيها.»

شهقت ايريس قائلة: «كيف يمكنك ان تكوني بهذا القلب القاسي؟ ان اعصابي بحالة فظيعة. انني اريدك ان تعودي في هذه اللحظة. أليس في قلبك رحمة؟»

وفكرت ميغ وهي تضع السماعة من يدها، أن في قلبها رحمة حقاً، ولكن لأجل كيرين زوجة ستيفن كيرتيس، ولو انه لا يبدو انها بحاجة إلى ذلك، وارتسمت ابتسامة فكاهية على شفتي ميغ وهي تفكر في ذلك. صحيح ان السيدة كيرتيس مجروحة من خيانة زوجها لها، دون شك ولكن هروبها ذاك وفضحها للأمر، استباقاً لما سيحدث، وترك مسؤولية الأولاد على عاتق زوجها وحبيبته، كل هذا كان خطوة مدروسة اكثر منها انجرافاً عاطفياً.

لوت شفتيها وهي تفكر في اختفاء مارغوت ساعة ادلهمت الأمور مما يدل على شخصيتها الحقيقية، وكذلك فكرت في مربيتها الرقيقة الهادئة المتفهمة والتي تعاني الآن، في هذه المحنة، مما ليست هي مسؤولة عنه.

«مساء الخير.»

التفتت لترى جيروم واقفاً في الباب المؤدي الى الشرفة وفي يده كأس عصير.

انتاب ميغ الذعر. إذن فقد كان جالساً في الشرفة طوال وقت المخابرة الهاتفية. ما الذي تراه سمع؟ وما الذي قالته هي مما قد يفضحها؟ وتصنعت ابتسامة وهي تقف قائلة: «لم أكن أعلم انك هنا.»

أجاب باقتضاب وهو يدخل الغرفة وعلى فمه ابتسامة

ساخرة من لباسها المحتشم: «هذا واضح. كم تبدين متواضعة ومحتشمة. هل يمكنني تقديم كأس عصير لك؟»

أومأت برأسها مجيبة: «نعم، شكراً.»

ونظر اليها متفحصاً وهو يقول: «أرجو أن لا تكوني قد سمعت أخباراً سيئة؟»

أجابت: «آه، بالعكس، فالأخبار حسنة جداً.» وبينما كان يملأ لها الكأس، أخذت تفكر في أن الأمور حسنة فعلاً، إذ ربما سيعود ستيفن كيرتيس إلى عقله، في النهاية، بالنسبة إلى زواجه، كما أن مارغوت ستتعلم درساً قاسياً هي بحاجة اليه حتما، وستعود الحياة قريباً إلى طبيعتها.

كما أنها كانت تشك في أن ايريس قد تغفر لها عدم استجابتها لها. وهزت كتفيها، فقد حان الوقت، على كل حال لكي تنتقل من ذلك المنزل. ومن الآن فصاعداً، ستمضي كل دقيقة فراغ من وقتها في غرفة المكتبة تتمرن على تلك الآلة الكاتبة إلى أن تتمكن من هذه المهنة، ليكون في استطاعتها، عند عودتها إلى لندن، أن تتقدم بطلب عمل مكتبي تعيش منه، إذ ليس أمامها سوى هذه الطريقة.

ونظرت إلى جيروم الذي كان يتقدم منها وفي يده كأس العصير، وقد تجلى في عينيها شوق دون أمل.

أشاحت بوجهها تحدق إلى خارج الشرفة، وقد انتابها الفزع من أن يقرأ في عينيها ما يدور في نفسها. وعندما اقترب منها، تناولت الكأس من يده وهي تتمتم شاكرة. بينما استند هو متراخياً، إلى حافة النافذة. وتضرج وجهها وهي ترى نظراته الفاحصة، وانفجر ضاحكاً وهو يقول: «مرة أخرى، هذا التضرج غير المعقول في وجهك.»

ولم تستطع أن تفكر في جواب لهذا. واستمرت تنظر امامها بجمود. كانت تعلم انه من القرب منها بحيث انها لو استدارت ستلامس كتفها بكتفه.

قال يغيظها: «لم أكن أعلم أن نقوش السجادة جذابة إلى هذا الحد...»

قالت وهي تعض شفتها: «كنت أفكر.»

قال: «لا أظنها أفكاراً سارة.»

وفكرت هي، بمرارة، في أنه يفهم عنها أشياء كثيرة.

وهزت كتفها قائلة: «إن المكان هادىء جداً هنا، بينما أنا قد اعتدت على حياة المدينة حيث دوماً هنالك شيء جديد.»

قال متأملاً: «آه، نعم، علينا إذن أن نحضر لك بعض الأشياء المثيرة هنا.»

حاولت أن تتجاهل ما يتوارى وراء كلماته هذه من إغاظة ضاحكة، واحتست شيئاً من العصير وهي ترد بحدة: «وذلك، دون شك، بطبع التخمينات عن تكلفة بناء سقف جديد.»

ضحك قائلاً: «حتى هذه الأشياء قد تكون ممتعة. وذلك حين تستعملين مخيلتك فتتصوري الجمال الذي سيكون عليه المنزل عندما ينتهي اصلاحه.»

فقالت ببطء وهي تفكر في الرسائل التي سبق وكتبتها قبل فترة: «آه، نعم، أظن ذلك.»

نظر اليها متسائلاً بقوله: «هل هنالك ما يضايقك؟»

أجابت: «كلا، ولكنني لا أستطيع أن أفهم لماذا، بعد هذا الزمن الطويل، يصرف على تصليح منزل كبير مثل هذا،

المبالغ الضخمة ولأي سبب؟ بينما من الواضح ان ليس ثمة ولد أو أي شخص آخر ليرثه.»

سألها: «أتظنين أن على هذا القصر أن يترك لحاله إلى أن يندثر بسلام؟»

قالت مترددة: «كلا، حسناً، ربما... إذ من هو الذي يستطيع أن يتحمل مصروف منزل ضخم كهذا، بعد الآن؟ وإلى جانب ذلك، لا أظن أن العمة تملك تلك المبالغ من الأموال.»

قال بشيء من السخرية: «وهل هنالك ما يمكنها عمله أفضل من هذا؟»

وقابلت نظراته بثبات قائلة: «نعم، ربما، فهذا المكان منعزل جداً، كما أنه يحتوي على كثير من الذكريات المحزنة يمكنها أن تبتعد... أن تسافر...»

قال: «وتنسى؟»

فحركت يدها تظهر العجز وهي تجيب: «ولِمَ لا؟»

قال: «لا أظن الأمر بهذه البساطة. فالحب لا يزول دوماً، أو يُنسى، بسهولة.»

قالت: «بعد كل تلك السنين؟»

فرد عليها بهدوء: «اذا كان الحب حقيقياً، فالوقت لا يعود له حساب. وساعة واحدة أو الحياة كلها، تصبح شيئاً واحداً.»

اشتدت يدا ميغ على كأسها وهي تقول متوترة: «ولكن إذا اتضح ان ذلك الحب هو لشخص غير مناسب، وفي وقت غير مناسب، وفي مكان غير مناسب؟»

قال بخشونة: «إنه يكون، عندئذٍ، مأساة. ولكنه لا يغير من

الأمر شيئاً، يا جميلتي، صدقيني. فالجرح العميق هو نفسه، وآثاره تبقى خالدة.» وفكر لحظة، ثم تابع: «كما أنه ليس في استطاعتك ان تبعدي السيدة مارغريت عن هذا المكان. فقد امضت اكثر حياتها هنا. وفي الحقيقة، لقد أصبح هذا القصر يمثل حياتها، وحبها. والآن هي تريد أن تفرغ فيه كل عواطفها المحمومة التي تجمعت طوال تلك السنوات الفارغة. فهل تنكرين عليها هذا؟»

أجابت ميغ وهي تتنهد: «كلا، كلا أبداً، ما دمت عرضت الأمور بهذا الشكل.»

قال: «أو ربما كنت تضعين في اعتبارك مصلحتك الخاصة؟» وخدعت، في البداية، بلهجته المهذبة، ولكنها، ما ان استوعبت المعنى الذي تضمنته كلماته حتى استدارت إليه بحدة، قائلة: «ماذا تقصد؟»

قال وهو يهز كتفيه: «إن السيدة وحيدة وضعيفة البنية. وسيلفي ألجو مرافقتها المعتادة، هي امرأة طيبة، ولكنها لا تستحق شيئاً على مودتها وعطفها، ثم أن السيدة مولعة بك.»

توترت ملامح ميغ وهي تقول: «لقد سبق وأخبرتك بأنني لا أريد شيئاً منها.»

قال بصوت عنيف ساخر: «إنني أعرف ماذا سبق وقلت. ولكن كل شخص بامكانه أن يغير رأيه. وفي مدى شهر يمكنك ان تحققي الشيء الكثير. حتى انه يمكنك ان تقنعي السيدة بأن تحول إليك كل ما تملكه، إذ تجد أمامها القصر القديم المتهالك، أو المرأة الشابة الجميلة... ولا شك أن كفة الميزان تميل في مصلحتك، يا عزيزتي مارغوت.»

انتابتها ثورة عمياء، ورفعت يدها تهوي بها على وجهه، ولكن يد جيروم كانت أسرع بامساك معصمها بقبضة من حديد.

قال بلطف وبرود: «آه، كلا. إياك.»

وسرعان ما كان يأخذها بين ذراعيه يشل بذلك، حركتها. كان غاضباً بشكل لم تره عليه من قبل. وهو يحتضنها بمشاعر محمومة لم تكن مشاعرها هي بأقل منها.

وفجأة، وبنفس العنف الذي بدأ به احتضانه لها، تركها من بين ذراعيه رافعاً إياها عنه وكأنه يطردها عنه طرداً. وهو يقول بصوت خشن متهدج: «آه، تباً لك، يا مارغوت، ما الذي تفعلينه بي؟»

وسار نحو الباب، قاذفاً بقدمه كأس العصير الذي كان قد سقط على السجادة، ثم خرج غالقاً الباب خلفه بعنف.

كانت هنالك كأس مهشمة على السجادة وعليها ان ترفعها بسرعة. وركعت على السجادة بحذر، ورأسها يدور، تلتقط القطع الزجاجية بمنديلها. وأجفلت عندما جرحت احداها، طرف اصبعها.

نظرت إلى خط الدم الأحمر السائل. كان الجرح عميقاً، والأثر سيبقى خالداً. وأحست بطعم دموعها المالحة وهي تنحدر إلى شفتيها.

الفصل العاشر

أشارت الساعة التي بجانب سريرها إلى الثانية صباحاً، وحدقت فيها ميغ وهي تقول: «يا للتعاسة.»

لقد مرّ عليها أسوأ مساء في حياتها. إذ ما كادت تنتهي من التقاط قطع الزجاج المتناثرة، حتى دخلت السيدة دي بريسو ترفل في الحرير المعطر، وهي تقول: «ها انك هنا، يا صغيرة؟» دون ان تنتبه، لحسن الحظ، إلى عيني ميغ المتألقتين بشكل غير عادي، وآثار الدموع على خديها وجلست في كرسيها المعتاد وهي تحدّق حولها بنظرها الضعيف قائلة: «ألم يأتِ جيروم، بعد؟»

تمتمت ميغ بشيء غير مفهوم. وقالت السيدة: «حسناً، هذا غير مهم. انني مسرورة إذ سنحت لي الفرصة لأراك وحدك.» وفتحت درجاً في منضدة بجانبها وأخرجت علبة مخملية وهي تقول: «أحب ان أقدم إليك هذه.»

ترددت ميغ شاعرة بالضيق، وابتدأت بالقول: «لا حاجة بك إلى ذلك، في الحقيقة...»

قاطعتها هذه بحزم: «بل ثمة حاجة. فلقد أهملتك مدة طويلة.» ووضعت العلبة في يد ميغ وهي تتابع قائلة: «ربما تكفّر هذه عن صمت كل تلك السنوات.»

قالت ميغ بذعر: «كلا، كلا. أعني... إنني لم آت إلى هنا لأجل هذا...»

قالت العمة برقة: «ليس بك حاجة إلى أن تخبريني بذلك.

ومع هذا فإنني أريد منك ان تقبلي هذا التذكار مني، يا عزيزتي. فلا تحرميني من هذا السرور.»

ازدردت ميغ ريقها وهي تفتح العلبة، لترى دبوساً رائعاً من الياقوت الأرجواني تحيط به اللآلىء.

حدّقت ميغ فيه، وقد عصتها الكلمات.

وأخيراً، قالت العمة: «أرجو أن يكون قد أعجبك؟ ربما لا يكون له قيمة مادية كبيرة، ولكنه كان يعني ذات يوم، الكثير بالنسبة لي، وهو الآن لك.»

فكرت ميغ في ان ليس ثمة حاجة للسؤال عمن أعطاها هذا الدبوس. وقالت بصوت مرتجف: «إنه أجمل شيء رأيته في حياتي. ولكن، لا يمكنني أخذه، يا عمتي... إنك... إنك لا تدركين...»

قالت العمة برقة: «ربما أنا أدرك. إنك تشعرين أن جيروم لن يقبل.»

أجابت: «إنني متأكدة من أنه لن يقبل، إنه... إنه لا يثق بي...»

قالت العمة وهي تربت على يدها: «لقد كان هذا قبل ان يقابلك، فلا تلوميه على هذا، يا طفلتي. فهو يبالغ في حمايتي أحياناً. ولكن هذا ليس ذنباً، صدقيني، في الرجل بالنسبة إلى المرأة. وكان حكمه عليك، في البداية متسرعاً مبنياً على السماع. وأنا متأكدة من أنه أدرك ذلك الآن.»

هزت ميغ رأسها قائلة بهدوء: «على العكس، أظن هذه الهدية ستؤكد أسوأ شبهات جيروم.»

«وما هي شبهاتي؟»

كان هذا صوت جيروم الذي كان واقفاً عند الباب يراقبهما.

قالت العمة: «لقد قدمت إلى عزيزتنا مارغوت هدية صغيرة. ولكنها مترددة بشأن قبولها.»

قال ببطء: «يا للأخلاق التي تدعو إلى الاعجاب.»

قالت العمة بحزم: «عليك ان تخبرها، إذن، بأن ترددها هذا سخيف.»

قال: «بكل سرور.» وتقدم من ميغ ومدّ يده إليها لتعطيه العلبة، قائلاً: «أيمكنني أن أرى؟»

ناولته ميغ الدبوس متمهلة، لكي يفحصه.

قال بعد برهة: «ولكنه رائع.» والتقت عيناه الساخرتان بعينيها، مما جعلها تتأكد من أنه عرف قيمة هذه الحلية. وتابع: «وكذلك، هو يتلاءم مع ما ترتدينه. اسمحي لي.»

وأخرج الدبوس من علبته، ووضعه في ياقة قميصها الأبيض.

وتراجع خطوة إلى الخلف وهو يقول بلطف: «إن مكانه مناسب تماماً.»

وبدا ان العشاء لن ينتهي. وعندما كانوا يدخلون قاعة الطعام، استدعت فيليبين جيروم إلى الهاتف، ليعود إليهم عند تقديم الحساء، واختلست ميغ نظرة من بين أهدابها الطويلة إليه، لترى العبوس يكسو ملامحه. كان من الواضح ان الخبر الذي تلقاه في هذه المخابرة الهاتفية، لم يكن ساراً. ربما قد اتصلت به تلك السيدة التي في منزله لتخبره بأنها قد سئمت من الانتظار.

حولت انتباهها إلى العمة، وابتدأت تثرثر بوجه مشرق، عن كل ما رأته وفعلته في المدينة هذا الصباح. ومن وقت لآخر، كانت تنتبه إلى نظرات جيروم تنصبّ عليها، متنقلة

بين شفتيها وذلك الدبوس الذي كان يتألق على ياقة قميصها. ولكنه لم يحاول ان يتدخل في حديثها أو أن يحوّل الحديث إلى موضوع آخر.

وعندما سكتت ميغ، لتلتقط أنفاسها، سألتها العمة: «أردت ان أسألك إن كنت قد اتصلت بأمك؟»

فأجابت: «نعم. لقد تحدثت معها قليلاً.»

قالت العمة: «أرجو ان تكون بخير؟» كانت كلمات العمة مؤدبة أكثر منها دافئة، وهي تتابع: «لا بد أنها تفتقدك؟»

ابتسمت ميغ بتحفظ وهي تجيب: «إنها مشغولة قليلاً عن هذه الأشياء، في الوقت الحاضر، كما أظن.» ورأت عيني جيروم تضيقان فجأة وهو يستند بظهره إلى الخلف ولكنه لم يعلّق بشيء.

ولم يكن لدى ميغ شهية للطعام، فأكلت قليلاً ثم دفعت بطعامها في أنحاء صحنها مما لم يعجب فيليبين عندما رفعت الأطباق.

وعندما انتقلوا جميعاً إلى غرفة الجلوس اقترحت العمة أن يتسلى جيروم وميغ بلعبة الطاولة، ولكن ميغ اعتذرت بسرعة، بأنها تعاني من الصداع.

أخذ جيروم يد السيدة يقبلها وهو يقول: «وأنا أيضاً استأذن بالذهاب، فقد حدث فجأة في منزلي أشياء غير متوقعة ولا يمكن تجنبها.»

شعرت ميغ بقلبها يكاد يكف عن الخفقان. إذن، فقد قرر أن يستجيب لذلك الاستدعاء له في الهاتف. حسناً، ما الذي كانت تتوقعه غير هذا؟ ولكن، ما لها تشعر بأنها تكاد تموت في أعماقها؟

قالت له السيدة بحدة: «إنك ترهق نفسك في العمل. هل ستعود في ما بعد؟»

قال بعد برهة: «لست متأكداً من ذلك. على كل حال، سأراك في الصباح. ليلة سعيدة.»

وابتسم لميغ ببرود قائلاً: «أرجو ان يبارحك الصداع بسرعة.» ومن ثم ترك الغرفة.

اهتمت العمة بتقديم ما يزيل صداعها، واضطرت ميغ إلى أخذه منعاً للشك من ان يراود السيدة، مع انه لم يكن ليستطيع تخفيف الألم في قلبها. ولكنها رفضت الذهاب إلى الفراش، فقد كان الانفراد بنفسها والتفكير، هو آخر شيء تريده في العالم.

قالت العمة وهي تسوّي الوسائد خلف ظهرها: «من المؤسف ان يضطر جيروم إلى الخروج، وإلا لكان جعل خاتمة يومك مسلياً لو انه استطاع البقاء.»

كانت تتكلم بصدق، ولكن ميغ لم تخدع بذلك، فقالت: «لقد جئت إلى هنا لأكون مرافقتك، يا عمتي، وليس مرافقته.»

قالت العمة: «ولكنك ابتدأت تعجبين به، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

كانت كلمة اعجاب هذه وصفاً فاتراً لتلك المشاعر الجارفة التي تكتسحها. وقالت باختصار: «إنني لم أفكر بذلك، في الحقيقة. هل أحضرت فيليبين الصحف؟»

قالت العمة: «إنني لا أريد ان أسمع أية أخبار صحفية، هذه الليلة. إنها جميعاً تتحدث عن الحروب والموت والدمار... وكلها تسبب لي الاكتئاب. إنني أفضل ان أتحدث عن الأشياء التي تبعث السعادة.»

قالت ميغ برقة: «سأتحدث في أي موضوع يعجبك ما عدا... ما عدا جيروم... إنني... إنني أعرف إلى أي حد نتما مولعان ببعضكما البعض، إلى أي حد تعتمدين عليه، ولكن ليس بامكانك ان تتوقعي مني المشاركة في علاقتكما.»

قالت العمة بقوة: «طبعاً لا، إذ ان هذه سخافة. ولكنك، أيضاً لا يمكنك الادعاء بأنك غير منجذبة إليه، يا عزيزتي، وكذلك هو.» وضحكت بهدوء وهي تستطرد: «عندما يخف نظر شخص ما، فإن بقية الحواس تقوى. وقد شعرت بذلك التيّار من المشاعر يسري بينكما.»

قالت ميغ: «إنه وسيم جداً، ومن الطبيعي ان أنتبه إلى هذا...»

قاطعتها العمة قائلة: «كلا، كلا. انني أتحدث عن شيء أكثر أهمية وعمقاً من مجرد الانتباه هذا...»

قالت ميغ باصرار: «أظنك مبالغة، فأنا والسيد جيروم لم نتقابل إلا منذ فترة قصيرة جداً.»

أفلتت من العمة ضحكة عميقة مرة أخرى وهي تقول: «ويا له من لقاء. وكم تظنين، أيتها الطفلة الحمقاء، ستأخذ معرفة ذلك، من الوقت؟ أحياناً نظرة... كلمة... وهذا يكفي لكي يصبح الرجل فوق الجميع في نظرك.»

حاولت ميغ ان تبتسم وهي تقول: «إن هذا كلام شاعري جداً، ولكن الحقيقة هي شيء آخر.»

تساءلت ميغ في سرّها، عما يحدث في حالة منحها قلبها لرجل لا يبادلها عواطفها، أو ما هو أسوأ، إذ يريدها لمجرد التسلية...

وعادت العمة تقول بحزم: «لا يجب ان تأخذك الشكوك في الحب، يا عزيزتي. بل عليك ان تتمسكي به بكل فرح وبهجة حالما يقدم إليك، وإلا فستمضين حياتك فارغة إلا من الندم.»

فكرت ميغ وهي تعض شفتها، إن هذا شيء هي متأكدة من الوصول إليه. وقالت بصوت عال: «ليس ثمة فائدة حتى من الحديث في هذا الأمر، إذ يبدو أنك نسيت أنني سأمضي هنا عدة أسابيع فقط...»

فربتت العمة على يدها قائلة: «بهذه المناسبة، بما أنني عدت فوجدتك، يا طفلتي فإنني لا أريد ان أخسرك. وآمل أن أراك دوماً في المستقبل.»

وصدمت ميغ لشعورها بالذنب. وحدثت نفسها بأنه ما كان لها أن تقبل تمثيل هذا الدور أبداً، وأن الحياة كلها لن تكفي للاستغفار عن هذا الذنب.

ورفعت يدها تلمس الدبوس، لتشعر أحجاره ببرودة تحت أصابعها. إن من المفروض ان هذا الدبوس تستحقه مارغوت، كما قصدت العمة، على كل حال، ولكن إذا وقع بين يدي تلك الفتاة الجشعة، فسيكون ذلك على جثتها، كما انها لا ينبغي أن تحتفظ به هي أيضاً. إنها تحتفظ به أثناء وجودها هنا فقط من باب الاستعارة كما هو الشأن بالنسبة لكل الأشياء الأخرى.

ولم يعد جيروم. وبعد الساعة العاشرة أبدت السيدة رغبتها في الذهاب إلى سريرها. وقد قرأت لها ميغ قبل النوم، قبل ان تذهب هي أيضاً إلى غرفتها، حيث نزعت الدبوس من ياقة قميصها بكل عناية، ثم وضعته في علبته

لتدسه في آخر الدرج في منضدة الزينة. لا بد انه كلف العمة كثيراً من الألم حين تخلت عن هذا الشيء الذي يعني لها الكثير. شعرت ميغ بالحزن لأجلها، لم تكن تظن بأن هذه السيدة ستتعلق بها بهذه السرعة. كما أنها لم تكن تتكهن بأنها كانت تنظر إلى هذه الزيارة كبداية لعلاقة طويلة كاملة مع ابنتها الروحية.

وانتهت بأن حدثت نفسها بأن هذه ستكون مشكلة مارغوت وليست مشكلتها هي.

ولكن هذه المشكلة كانت واحدة من كثيرات، إذ ان ستيفن كيرتيس ابتدأ يحاول انقاذ زواجه بأي ثمن. وهذا يعني بالطبع ان مارغوت ستخرج من عملها ومن حياته أيضاً.

ولم تشعر ميغ يوماً بأي تعاطف مع مارغوت أثناء ملاحقة هذه الأخيرة لكيرتيس، ولكن خطر لها الآن، بعد هذا الإحساس الجديد الذي استيقظ فيها، بأن مارغوت لو كانت حقاً تحب ذلك الرجل فإن فقدانه سيحطمها وسيمزق نفسها.

وفكرت في ان مارغوت ربما لم تكن تريد أن تحبه، ولكنها مثلها هي، لم تستطع مغالبة عواطفها. وستتألم لهذا، مثلها إلى آخر حياتها.

وتملكها الأرق وهي مستلقية على فراشها في الظلام تقلب مختلف الأمور، ولكن ذهنها المرهق لم يستطع ان يضع حلاً لأية مشكلة من تلك المشكلات التي تشغلها وتسبب لها الحيرة والارتباك. وفي النهاية، دفعت عنها الأغطية بحزم. إنها الساعة الثانية صباحاً، وهي لن تبقى مستلقية هنا مستسلمة للأفكار المؤلمة، إنها ستستغل أرقها هذا في ما يفيد.

وضعت عليها معطفها المنزلي، وأخرجت مصباحها اليدوي من حقيبتها، ثم فتحت باب غرفتها ليواجهها الصمت والظلام. وبحذر اتخذت طريقها على ضوء مصباحها إلى غرفة المكتبة. إنها ستواجه الصعوبات وستتغلب عليها. ربما سيأخذ منها اقناع جيروم بأنها غير جديرة بعض الوقت، ولكن بامكانها على الأقل، ان تثبت له بأنها ذات كفاءة في العمل. وذلك بالتدرب على تلك الآلة الكاتبة اللعينة.

دفعت باب المكتبة، ولكن لتقف مصعوقة. كان مصباح المكتب مضاءً وكان هو جالساً إلى المكتب مشغولاً بالكتابة. وحدّق فيها وكأنه يرى شبحاً، ثم جمع الأوراق التي أمامه ووضعها في ملف.

وسألها: «ما الذي جئت تفعلينه هنا؟»

ولم تشأ أن تخبره أنها كانت قادمة للتمرن على الطباعة سراً، وإلا لظنها مجنونة.

قالت تجيبه: «ظننت أنني سمعت ضجة.»

قال بابتسامة جافة: «أرجو أن يكون ألم رأسك قد خفَّ الآن.»

قالت: «نعم.» وسكتت لحظة، ثم عادت تقول: «ظننتك لن تعود هذه الليلة.» قالت ذلك وهي تفكر ببرود، في ان تلك الفتاة المجهولة في منزله لا بد أن تهتم به أكثر مما تفعل الآن، لكي لا يتركها في مثل هذا الوقت.

هز كتفيه قائلاً: «ثمة بعض تخمينات التكلفة بالنسبة للبناء كانت في انتظاري في مسكني، رأيت ان أنهيها، ذلك ان السيدة مارغريت تريد ان يبدأ العمل في أقرب وقت.»

قالت ميغ وهي تشدّ حزام معطفها بعصبية: «نعم، بالطبع.» لاحظ حركتها هذه لاوياً شفتيه ثم التقط قلمه وهو يقول: «إنني لن أعيقك عن العودة، أم لعل هناك شيئاً آخر؟»

قالت: «كلا... على الأقل...» وترددت.

قال: «حسناً، تابعي كلامك.»

قالت بشيء من السرعة: «إنه عن ذلك الدبوس. إنني أريد... أريد ان أوضح لك الأمر بشأنه.»

رفع حاجبيه قائلاً: «وهل ثمة إيضاح ضروري؟ لقد أرادت السيدة ان تقدم لك هدية، وهذا شأنها هي فقط.»

قالت وهي ترطب شفتيها الجافتين بلسانها: «لا أظن هذا صحيحاً. إنه حلية قديمة وجميلة، وليس علبة شوكولاته، لقد حاولت ان أخبرها أنه لا يمكنني قبول مثل هذا الشيء، ولكنها لم تستمع إليّ.»

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يقول: «لقد اعتادت التصرف بطريقتها الخاصة في أشياء كثيرة. وليس بامكانك تغييرها في هذه الفترة القصيرة.»

قالت: «هذا بالضبط ما أريد أن أقول. انني سأتقلّد الدبوس أثناء وجودي هنا، وعندما أرحل ساعيده إليك.»

وقطب حاجبيه قائلاً: «أتعيدين هديتها؟ لا يمكنك ان توجهي إلى السيدة مثل هذه الإهانة.»

قالت بثبات: «ذلك هو السبب في أنني أردت أن أعيد الدبوس الثمين إليك أنت.» وسكتت لحظة، ثم عادت تقول: «وعلى كل حال، فقد جاء أصلاً، من أسرتك. أليس كذلك؟»

هز كتفيه قائلاً: «دون شك. إذ لو كان تابعاً لأسرة دي بريسو لباعه هنري وقامر بثمنه.»

أومأت برأسها قائلة: «ولهذا، أنا سأعيده، فقط إلى أصحابه.»

فازداد تقطيب جبينه وهو يقول: «هذا ليس ضرورياً أبداً. إن الدبوس ملكك الآن، فاحتفظي به.»

هزت رأسها قائلة: «لا يمكنني ذلك.»

قال وقد أظلم وجهه: «هل هذا بسبب ما قلته لك قبل العشاء؟ لم يكن من حقي أن...»

فرفعت يدها تمنعه عن متابعة الحديث، قائلة: «ثمة أسباب أخرى كذلك. وأرجوك ألاّ تسألني الإيضاح.»

قال: «حسن جداً.» وسكت لحظة ثم عاد يقول: «هل هذا هو السبب في حضورك إلى هنا؟ فقط لتخبريني عن الدبوس؟» وكان في صوته نبرة غريبة.

قالت: «لقد سبق وأخبرتك بانني سمعت ضجة.»

سألها متهكماً: «سمعت ضجة هنا من غرفتك في الطابق الأعلى؟ يا للسخافة.»

وفكرت هي في ان هذا العذر ليس في الواقع، بسخافة نصف الحقيقة. وقالت تجيبه: «حسناً، ثمة شيء أيقظني لا أدري ما هو بالضبط.»

قال وقد بدت المرارة في صوته، والتفكير في عينيه: «قد يكون نفس السبب الذي جعلني لا أنام الليل منذ بداية تعارفنا، يا جميلتي.» وترك القلم من يده ثم وقف ودار حول المنضدة قادماً نحوها.

تراجعت ميغ نحو الباب وهي تقول بسرعة: «انني آسفة لإزعاجي لك... يمكنك ان تعود إلى عملك الآن.»

قال: «إزعاجك لي؟» وأطلق ضحكة خشنة قصيرة وهو

يتابع: «تباً لك... أأزعجتني فقط؟ ألا تعرفين ما الذي فعلته بي؟ يا جميلتي المخادعة المنحلة الساقطة؟»

اهتزت قائلة: «كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الكلمات؟»

قال ساخراً: «آه، انني أجرؤ على ذلك لأنني أعيش الآن في جحيم، يا عزيزتي مارغوت. لقد أحلت حياتي وخططي كلها إلى فوضى ومع انني أعرف حقيقتك، فإن هذا لا يغيّر من الأمر شيئاً. انني أحاول أن أحتقرك، ولكنني أشعر، في النهاية ان رغبتي بك تزداد.»

اقترب منها خطوة وهو يتابع: «وإذا كان الأمر هو نفسه، بالنسبة إليك، يا حبي، فلا تدّعي العكس. فأنت هنا هذه الليلة، لهذا الشيء. لأنك لا تستطيعين البقاء بعيدة عني. ولقد سبق وقلت انني سأجعلك تأتين إليّ، وها أنت ذي هنا.»

شهقت قائلة: «كلا، هذا غير صحيح، إنك مجنون.»

قال ساهماً: «نعم، أظنني مجنوناً قليلاً. فقد ابتدأت معركتي بمقاومتك، ولكنها انتهت بمقاومة نفسي، وليساعدني الحظ في ذلك.»

قالت بصوت مبحوح: «إنني سأرحل. سأخبر السيدة ان عليّ أن أعود إلى انكلترا معتذرة بأزمة عائلية، أو أي شيء آخر...»

قال بابتسامة ملتوية: «ربما تريدين العودة إلى حبيبك، لكي تنقذي ما يمكنك انقاذه، إن كان هذا بامكانك؟»

هزت رأسها بوحشية وهي تقول: «ليس عندي حبيب.»

قال: «كلا، ربما ستكون هذه هي الحقيقة في النهاية. مسكينة مارغوت.»

قالت: «لا تناديني بهذا الاسم، يا جيروم.» وازدردت ريقها وهي تقول: «ثمة أشياء عني أريد منك ان تعرفها.»

قال: «لقد سبق وعرفتها حتى قبل ان تضعي قدمك في فرنسا، لقد نويت أن أقضي بعض الوقت معك لكي أبرهن على انك فتاة رخيصة تذهب مع أي كان.»

حملقت فيه غير مصدقة وهي تقول غاضبة: «ماذا تقصد؟ ما هذا الذي تقوله؟»

أجاب: «لقد مضى زمن الإدعاء، يا جميلتي، ولنكن الآن صادقين مع بعضنا البعض.» وخشن صوته وهو يتابع: «لقد وقعت في الفخ الذي نصبته لك، يا مارغريت. لقد سحرتني أنا أيضاً، لقد تسللت إلى أعماقي، واستوليت على روحي.» ونظر إليها بعينين نهمتين وهو يتابع قائلاً: «ولكن، ربما إذا استوليت عليك بطريقتي، يبطل هذا الافتتان، واسترد حريتي، وعقلي.»

قالت بصوت مختنق: «كلا.» واستدارت تبغي الهرب، ولكن قدمها اشتبكت بطرف معطفها فتعثرت، وفي تلك اللحظة أمسك بها جيروم ليجذبها إليه بيدين قاسيتين. قاومته هي بضراوة، وهي تضربه بقبضتيها على صدره.

ولكنها، وهو يشدّ عليها ذراعيه ابتدأت تشعر بخفقان قلبها يتصاعد، متجاوباً مع خفقان قلبه.

وهمس من أعماقه، وقد استحال العبوس والقسوة في وجهه، إلى رقة بالغة، وكان همسه حافلاً بالمشاعر: «مارغريت.» واستدار وجهها إليه كالزهرة التي تتفتح أمام الشمس.

وعندما شدّها إلى صدره، ثم حملها بين ذراعيه، لم تمانع ولم تبد أية مقاومة وهو يسير بها صاعداً إلى غرفتها ليضعها في سريرها، ثم يستلقي بجوارها.

استلقت ميغ في السرير، وهي تضغط بقبضتها على فمها المرتجف، شاعرة رغم إغماضها عينيها، بأنه لم يعد بجانبها.

وأخيراً، تجرأت ففتحت عينيها تبحث عنه، لتراه واقفاً قبالة النافذة، مولياً إياها ظهره، وقد أزاح الستائر وفتح المصراعين، ومضى يحدّق في أول خيوط الفجر وهي تبدو من ناحية الشرق.

عاد بها الزمن دقائق إلى الوراء... لترى نفسها تصرخ متوترة، لتسكت لاهثة وقد تدحرجت الدموع على خديها.

وهتف بها بسرعة وهو يقول مذهولاً: «ماذا جرى؟ ماذا حدث لك يا عزيزتي؟» وعضت شفتيها بقوة وهي تقول بصوت مرتجف: «لا أعرف... لم يسبق لي أن...»

وجمد في مكانه فجأة وهو يحملق فيها غير مصدق ويقول: «ماذا تقولين؟ هل ما زلت...؟ أممكن هذا؟ تباً لي.»

وازداد انهمار دموعها تحرق خديها وهي تقول: «انني آسفة. لا تغضب مني، أرجوك.»

وبقي صامتاً برهة، ثم قال بهدوء: «انني لست غاضباً.» ثم رفعها بين يديه برفق، وأرقدها على الوسادة وهو يزيح خصلات شعرها، المبللة بدموعها، عن وجهها ثم يمسح تلك الدموع بطرف ملاءة السرير.

لم يكن يفصل بينها وبينه، حيث كان يقف الآن، سوى

مترين أو حوالي ذلك، ولكنها شعرت وكأنها تنظر إليه عبر امتداد الكون بأجمعه.

وأخيراً، تنهد وهو يلتفت إليها قائلاً: «والآن، أخبريني عن حقيقتك، ومن أنت بالضبط.»

www.rewity.com

الفصل الحادي عشر

كان الصمت في الحجرة، لا نهاية لعمقه.

وأخيراً، قال بصوت هادىء وكأنه رجل غريب: «إنني بالإنتظار. من الواضح أنك لست مارغوت ترانت، ولكن من أنت؟»

أجابت وقد جف فمها: «أختها غير الشقيقة. إنني... إنني مارغريت أيضاً... مارغريت لانغتري. لقد حاولت أن أخبرك بذلك في غرفة المكتبة منذ فترة. ولكنك قلت... لقد جعلتني أظن بأنك تعلم.»

قال: «آه، هذا صحيح، ولكن هدفينا كانا متعاكسين، ولكن ما هو سبب هذا التنكر؟»

أجابت: «لم تتمكن مارغوت... من الحضور، فطلبت مني أن أحضر بدلاً منها.»

قال ساخراً ببرود: «إنك تتكلمين وكأن الأمر غاية في البساطة. لماذا إذن أخفيت شخصيتك الحقيقية مدعية بأنك فتاة أخرى؟»

أجابت: «لا يمكنني إيضاح الأمر...»

قال برفق: «حاولي...»

أجابت: «لم تكن مارغوت راغبة في أن تظن خالتها بأنها لا تهتم بها.»

قال: «مع أن هذا كان هو السبب الحقيقي.»

قالت: «ليس تماماً. لقد كان عندها أسباب قوية تمنعها من مغادرة انكلترا.»

قال: «بالطبع. من الواضح أن السبب هو ذلك الحبيب الذي لم تعرفي كيف تصفينه عندما تحدثت عنه.» وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «لقد كانت القضية وصلت إلى الذروة فلم تجرؤ هي على الرحيل لكي لا يغير رأيه في غيابها، كانت بحاجة إلى البقاء للتشبث به... لكي تستمر في الضغط عليه.»

وفكرت بتعاسة أن هذه هي الحقيقة فعلاً. ولكنها قالت: «أظن، هذا هو السبب.»

قال: «وكنت أنت سعيدة في مساعدتها في هذا الأمر.» وأثارت سخريته أعصابها بينما تابع: «لقد كنت غاية في البلاغة وأنت تنتقدين جدي، بينما لم يزعجك أن تتعاوني معها في تحطيم حياة زوجية.»

حملقت ميغ فيه وراحت تسأله بلهجة هي مزيج من الارتباك والتعاسة: «هل تعرف شيئاً عن هذه القضية؟»

قال: «نعم أعرف، فإن كيرين كيرتيس الزوجة هي إبنة عمي. وقد نشأنا معاً كأخ وأخت. وعندما رأيتها آخر مرة كان واضحاً أنها كانت متكدرة جداً من شيء ما. وفي النهاية، جعلتها تفضي إليّ بالأمر.» وكسا ملامحه العبوس وهو يتابع: «وعند ذلك سمعت للمرة الثانية، باسم مارغوت ترانت.»

قالت ميغ وهي ترتجف: «للمرة الثانية؟ آه، أظن أن السيدة قد تحدثت إليك عنها.»

قال ساخراً بصوت أقرب إلى الوحشية: «نعم، إبنتها الروحية وقريبتها الوحيدة... والتي لم ترها منذ سنوات كثيرة... لأنها لم تشعر نحوها بالمودة منذ كانت طفلة...

www.liilas.com

لأنها رأت فيها صورة أمها التي كانت لا تحبها. فهي كانت تشعر بأنها لم تكن عادلة معها فأرادت أن تصلح من خطأها ذاك. وعندما أخبرتني كيرين عن قضية زوجها، تمنيت أن لا تكون هي نفس الفتاة. وكانت ابنة عمي مقتنعة بأنها لا تكن له حباً حقيقياً، بل تريده لتحقيق طموحها فقط. وقد حقق مخاوفها ما قمت به من استعلام عن تلك الفتاة إذ لم أجد من يذكر الآنسة ترانت بكلمة حسنة. فقد كانت قاسية أنانية تبحث عن المال ولا يهمها سوى مصلحتها. وقد كنت أتألم لحالة السيدة مارغريت بقدر ما كنت أتألم لحالة ابنة عمي. فقد كنت أحس بمدى شعورها بالوحدة ولحاجتها إلى إعادة الصلة بتلك الفتاة. ولكنني كنت أعرف أن (صغيرتها) مارغوت غير أهل لكل ذلك.

قالت ميغ: «ولكنك لم تقل شيئاً. ألم تخبرها؟»

أجاب: «لم يكن بإمكاني ذلك، فقد توسلت إليّ كيرين بأن لا أذكر شيئاً عن متاعبها هذه، فقد كانت مستميتة في سبيل إنقاذ زواجها، ومقتنعة بأن ستيفن لا بد سيعود إليها، وعندما قررت السيدة دعوة مارغوت إلى هنا، بدا لي أننا سنصيب عصفورين بحجر واحد. إذ أنها، السيدة، سرعان ما ستكتشف شخصية الفتاة فتراها على حقيقتها.» ولانت ملامح وجهه وهو يعلق على قوله ذاك، قائلاً: «إن فقدها لبصرها قد قوّى من حواسها الأخرى من نواحٍ متعددة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن حضورها إلى هنا يفصلها عن ستيفن كيرتيس. وكانت كيرين متأكدة من أن الفتاة ليست مخلصة في حبها لستيفن، ولكنها كانت بحاجة إلى إثبات ذلك.» ولوى فمه ساخراً وهو يتابع: «وهكذا

صممت على أن أحقق لها ذلك، وأن أبرهن على أنها فتاة مخادعة تذهب مع أي كان، وهذا بإغوائها بنفسي.»

واستطرد بصوت عنيف: «إنما ما لم أضعه في حسابي هو أنت.»

واخترقت كلماته قلبها كطعنة سكين. إذا كانت هي قد قامت بتمثيل دور زائف، فقد فعل هو أيضاً نفس الشيء. هل كانت كل نظرة منه، كل همسة، كل لمسة... هل كان كل هذا ادعاءً وكذباً. وذلك للإيقاع بها؟ إنه يقول كل هذا بنفسه. إن ذلك الحبيب الذي أخذها بين ذراعيه لم يكن له وجود مطلقاً. وإذا كان له وجود فهو حبيب تلك الفتاة الموجودة في مسكنه.

وتمنت الموت وهي تفكر في أنه لم يرغب قط فيها.

وسمعته يقول: «لماذا فعلت ذلك؟» ولملمت بقايا كبريائها... واحترامها لنفسها لتقرر، وقد برّح بها العذاب. إنها يجب أن لا تدع جيروم يعلم أبداً مقدار نجاحه في خداعها بادعاء الحب لها. يجب ألاّ يدرك، مهما كان الأمر، أنها واقعة بغرامه.

أجابته قائلة: «لم يكن لديّ خيار. فقد كانت هناك ضغوط متعددة علي لم تترك لي مجالاً للرفض.»

قال ببرود: «إنك، دون شك، عاطلة عن العمل، طبعاً. وهذا الذي جعل من السهل قدومك إلى هنا. أليس كذلك؟ وقد دفعت لك مارغريت مصاريفك.» وانغرزت أظافرها في راحتيها وهي تقول: «إنك جعلتني، بكلامك هذا، أبدو كمرتزقة. ولكن السبب لم يكن هذا فقط.»

رفع جيروم يده يقاطعها قائلاً: «اعفيني من ذكر البقية.»

وسكت لحظة وقد بانت المرارة في ملامحه، ثم تابع يقول: «كان عليّ أن أعلم أنك مخادعة. فقد كان ثمة تناقضات كثيرة مثل قدرتك على التكلم بالفرنسية، وفشلك في الطباعة على الآلة الكاتبة... كل هذا كان ينبغي أن يدلّني على أنك لست الفتاة التي أدعيت.»

وأشار بملل إلى الفراش قائلاً: «ولكن، ما الذي جعلك تستمرين بهذا اللعبة إلى هذا الحد، أيتها الحمقاء. هل ظننت أنك ستكونين في النهاية رابحة؟»

وحنت ميغ رأسها وقد برّح بها الألم واليأس، وقالت بصوت لاحياة فيه: «أظن... إنني لم أدرك...»

ولم تقل له إن حبها له أعماها عن كل شيء.

سألها: «وأين هي إذن، شقيقتك الجميلة تلك؟»

أجابت: «ليس عندي فكرة.» وترددت، ثم سألته: «إنك تعلم، طبعاً، أن كيرين تركت زوجها وأطفالها.»

أجاب: «نعم. لقد أرادت أن ترى ما إذا كان العنف قد يعيد زوجها إلى عقله، وليس لأنها كانت سعيدة بأن تترك صغارها لرحمة مارغوت.»

قالت ميغ: «إن مارغوت لم تأخذ الأطفال، وهم الآن في أمان عند مربيتي العجوز، كما أن ستيفن كيرتيس قد ذهب ليبحث عن زوجته. وبهذا، يبدو أن خطتها قد نجحت.»

لاحت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يقول: «الأمور إذن ابتدأت في التحسن من ذاتها، باستثنائك أنت.»

ردت عليه بحدة: «أرجوك أن لا تشغل بالك بأمري، ففي إمكاني العناية بنفسي.»

قال بنفاد صبر: «لا تتكلمي كالحمقى. فليس في إمكاننا

ترك الأمور كما هي. ما زال هناك الكثير للحديث عنه...»

قالت: «على العكس، فقد تحدثت بما فيه الكفاية. وأيضاً فعلت ما فيه الكفاية.» ونطقت كلماتها الأخيرة بالمرارة البالغة.

مشت نحو منضدة الزينة وفتحت درجها، وعندما عادت كانت العلبة المخملية التي تحوي الدبوس الحلية في يدها وهي تقول: «هذا هو العمل الوحيد الذي لم ينته بيننا.» وألقت بالعلبة إليه وهي تتابع: «وهذا هو نهاية كل شيء، فاخرج من هنا.»

غصت بريقها وهي تغالب دموعها، ثم استطردت: «عد إلى حيث تنتمي، يا سيد مونتكورت.»

فاقترب خطوة منها وهو يقول: «مارغريت.»

ولكنها لم تتراجع ومضت تقول صارخة: «هيا إذهب، ودعني بسلام.»

فأطلق ضحكة كلسعة السوط وهو يقول: «بسلام؟ تباً لك، أي سلام سيتمتع به أيّ منا بعد الآن؟»

ونظرت إليه وهو يسير نحو الباب بخطواته الواسعة الرشيقة، ليخرج من حياتها إلى الأبد.

وعادت تقول للغرفة الفارغة: «وهذه هي نهاية كل شيء.» وانخرطت في البكاء.

عليها أن تبتعد من هنا. كانت هذه هي الفكرة التي سيطرت على ذهنها وهي تقوم بعملها الصباحي المعتاد، من استحمام وارتداء الملابس، بحركات آلية.

لا يمكنها البقاء والتعرض للعذاب برؤية جيروم كل يوم وهي تعلم أنه يحتقرها، بينما تتذكر كيف أن تلك السعادة

التي وجدتها بين ذراعيه، جعلتها تظن أن كلاً منهما ينتمي إلى الآخر. ما كان أغباها. حسناً، لقد تلقت درساً الآن. وهي على كل حال، سترى السيدة دي بريسو بعد ما ظهر سرّها الآن. وعليها أن تخبرها بالحقيقة قبل أن يفعل ذلك جيروم.

ولكن تلك المحنة كانت مؤجلة إلى حد ما، إذ أن السيدة تناولت، ذلك الصباح، فطورها في غرفتها، وكان عليها أن تنتظر خروجها إلى غرفة الجلوس، قبل ذلك. كان لا بد لها من أن تقوم بذلك العمل قبل أن يقوم به جيروم أولاً. وعضت على شفتها وهي تتصور ردة الفعل عند السيدة عندما تعلم بهذا الخداع الذي تعرضت له.

ولكنها عندما نزلت إلى الطابق الأسفل، أخبرتها فيليبين أن جيروم ليس هناك، وأنه ذهب في سيارته منذ ساعتين تقريباً.

وأضافت فيليبين بعنف: «كان يسوق سيارته كالريح.»

فدهشت ميغ وقالت: «ألم يقل متى سيعود؟»

فهزت فيليبين كتفيها قائلة: «كان يبدو عليه الاستياء، فلم يكن في إمكان أحد أن يوجه إليه أية أسئلة.» ومشت ميغ إلى غرفة المكتبة مكرهة، كان عليها أن تسترجع معطفها المنزلي الذي سقط الليلة الماضية هناك عندما حملها بين ذراعيه إلى غرفتها، وذلك قبل أن تدخل الخادمة التي تأتي من القرية لتنظيف البيت، إلى غرفة المكتبة قبلها. وطوته بعناية. ولم تستسغ فكرة حملها له بشكل مكشوف إلى غرفة نومها، أمام عيني فيليبين الحادتين.

ونظرت حولها في الغرفة وقد أحست بغصة وهي تتذكر كل كلمة قالها لها جيروم، الليلة الماضية. لقد اتهمها بأنها

فتنته، وقال (لقد وقعت في الفخ الذي كنت نصبته لك...) وكادت تسمع صدى صوته تعيده الجدران وهو يقول (إنني أحاول أن أحتقرك، ولكنني أشعر، في النهاية، أن رغبتي بك تزداد.)

ولكن، لم يكن ثمة فائدة من استخلاص أية بارقة أمل من وراء كلامه ذاك، لأنها، كما أخذت تفكر، لم تكن تفتش عن الرغبة عند جيروم بل الحب. وهي الآن، في نظره، لا تفرق عن مارغوت، إن لم تكن أسوأ، هذا عدا أنه مرتبط بامرأة غيرها... إمرأة حاول أن يتجاهلها، ولكنها، لم تستطع هي ذلك.

وكان أفضل ما يمكنها عمله، هو أن تعود إلى غرفتها لتخرج أمتعتها حتى إذا ما طلبت منها السيدة، الرحيل، تكون هي، على أتم استعداد.

ورأت على المكتب، حافظة الأوراق التي كان قد تركها جيروم الليلة الماضية. وقررت أن تستعيرها لتضع فيها معطفها المنزلي. وعندما أخرجت الأوراق من الحافظة، لتضعها على المكتب، تناثر بعضها على الأرض وعندما التقطتها، ألقت عليها نظرة عابرة، وكانت تعرفها لأنها كما سبق وقال عنها إنها عروض من الحرفيين... النجارين والبناءين والمختصين. بالتمديدات الصحية. وشهقت ميغ بذعر وهي ترى المبالغ التي يطلبونها. وتساءلت عما إذا كان في إمكان العمة توفير مثل هذه المبالغ الطائلة.

وبينما كانت تنظم الأوراق في رزمة واحدة، رأت أن نفس عناوين الصفحات تتكرر، فأدركت أن بعض تلك العروضات كانت مكررة. وافترضت أن نسخة منها كان من

المفروض أن تسلّم إلى السيدة، بينما يحتفظ جيروم بالنسخة الثانية.

ولكنها جمدت في مكانها وهي تضع ورقتين تقدمان نفس العرض، من نفس المتعهد، وذلك الواحدة بجانب الأخرى. وعقدت حاجبيها. كان العمل واحداً في العرضين. المبلغ المطلوب في كل منهما كان يختلف عن الآخر. كان الفرق شاسعاً بين الاثنين يبلغ مئات الألوف من الفرنكات، وكانت المئة ألف فرنك تساوي ألف جنيه استرليني كما كانت ميغ تدرك.

وأخذت تقابل بقية العروض بيدين ترتجفان. وشعرت بما يشبه الغثيان. كان التفاوت بين كل نسختين هو، تقريباً، في البقية.

وتهالكت على كرسي قريب، وهي تفكر ثائرة. كلا. لا يمكن هذا، هذا غير معقول.

ورأت الصفحة التي كان يكتبها عندما دخلت عليه، وتذكرت كيف طواها بسرعة مبعداً إياها عن ناظريها وهو يقول: «إن السيدة مارغريت قد نفد صبرها وتريد أن يبدأ العمل تواً.»

وفكرت ميغ في نفاد الصبر ذاك الذي جعلها تتقبل بكل ثقة، أي رقم يعرضه عليها حفيد الرجل الذي أحبت، ذات يوم، وذلك دون أية مناقشة. عندما تدفع المال لأولئك الصناعيين، يشاركهم جيروم بها آخذاً حصته. دون أن تشتبه السيدة دي بريسو بشيء، لأنه هو جيروم... جيروم.

وشعرت بهذه الحقيقة التي توضحت أمامها تخنقها،

وهي تراه يدينها هي، أخلاقياً، لادعائها ذاك الذي يبدو الآن في غاية البراءة إذ يقابل بعمله هو. ودفعت الأوراق بعيداً عنها باشمئزاز. لقد جرؤ علي أن يسميها بالمخادعة. حسناً، لقد كان مخادعاً هو أيضاً. وبشكل مضاعف. لقد كان عمله هذا احتيالاً على سيدة مسنّة نصف عمياء. سيدة يدعي هو أنه يحبها ويحترمها.

وتقبضت يداها وهي تتمتم، منافق... لص. يجب أن لا يفلت من العقاب. إنها ستذهب إلى منزله الآن لتواجهه بكل هذا، وكذلك تلك المرأة التي معه، وتهدده بفضحه لدى السيدة، ولدى الشرطة أيضاً، إن لم يتلف العروضات الزائفة.

وأعادت الأوراق إلى الحافظة، وعادت إلى غرفتها تاركة معطفها على المكتب وهي تفكر عابسة، ان على ذلك المعطف أن ينتظر، وكانت تعبر الردهة قاصدة السلم، عندما اندفع الباب الخارجي مفتوحاً بعنف، لتتدفق أشعة الشمس تغمر الردهة تلك وقد وقف جيروم في وسطها.

كان يبدو منشغل البال، وقد بدا التعب والارهاق على وجهه، ورغم كل شيء، قفز قلب ميغ لرؤيته. وزجرت نفسها بازدراء لمشاعرها الحمقاء تلك.

ووقف فجأة، لرؤيتها، ثم قال بهدوء: «كنت أرجو أن أراك. إنني بحاجة للتحدث إليك.»

قالت: «وأنا أريد ذلك أيضاً. على أن يكون ذلك في مكان لا يسمعنا فيه أحد.»

وبدا العبوس على ملامحه وهو يرى حافظة الأوراق في يدها، وقال: «لقد جئت لأخذ هذه، ما الذي تصنعينه بها؟»

أجابت: «دعنا نتحدث عن ذلك على انفراد.» ومشت أمامه إلى غرفة الطعام، ثم اغلقت وراءهما الباب الثقيل. ثم أخرجت مجموعتين من الأوراق صفتها جنباً إلى جنب، على الطاولة. ثم قالت: «كم تبلغ حصتك المئوية من هذا، يا سيد مونتكورت؟»

ارتفع حاجباه بعجرفة وهو يقول: «ماذا تقصدين؟»

قالت: «إنني أقصد سلبك لأموال امرأة مسنة، امرأة تظن أن الشمس والقمر يأخذان نورهما منك، بينما تتلاعب أنت والآخرون بها، بهذا الشكل المشين.» وارتفع صوتها بحدة وهي تقول: «ومع ذلك تجرؤ على أن تتحدث معي عن الخداع؟»

وتوتر فمه وهو يتقدم نحو المنضدة قائلاً: «هل أريتها هذه العروض؟»

فأجابت وهي تقف بينه وبين الأوراق الثمينة: «كلا.»

فوقف وقد علت شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يرى وقفتها المتحدية، وهو يقول: «شكراً لهذا، على الأقل.»

حملقت فيه قائلة: «أهذا كل ما عليك أن تقوله؟»

هز رأسه وهو يقول بابتسامة ملتوية: «هل تنتظرين مني أن أقدم بعض الأعذار أدافع بها عن نفسي؟ كلا يا جميلتي، وظني بي ما تشائين.»

قالت: «وإذا أنا أخذت هذه الأوراق إلى السيدة؟»

أجاب: «لا يمكنني منعك من ذلك. ولكنني أرجو أن لا تفعلي، لأن هذا يسبب لي... مشاكل.»

اهتز صوتها وهي تقول: «إن ذلك ما تستحقه. إنك تستحق أن تذهب إلى السجن بقية حياتك. لقد وثقت بك

السيدة لأجل جدك. فاستغللت أنت ذلك لتكتسب ثقتها وعواطفها. إنك إنسان حقير.»

شحب وجهه وظهر التوتر على فكه وهو يقول: «هل انتهيت؟»

أجابت: «إنني لم أبدأ بعد. كيف أمكنك القيام بهذا العمل، يا جيروم؟ كيف استطعت أن تعاملها بهذا الشكل؟ إنك لست في حاجة إلى مال.» ومدت إليه يديها بضراعة وهي تتابع: «دعني أفهم كل هذا؟»

قال بصوت بارد كالثلج: «أظن هذا مستحيلاً. وعلى كل حال، لماذا تريدين أن تعرفي؟»

ولم تستطع أن تقول انها تريد معرفة ذلك لأنها تحبه ولأن قلبها يناديه، ولأن هذا يخالف كل ما تعرفه عنه. ولأن أحلامها تحطمت وتريد إصلاحها.

وبدلاً من ذلك، حنت رأسها وهي تقول ببطء: «لا يوجد سبب.»

قال: «هل لي إذن، أن آخذ اوراقي على أن تضمني عدم تدخلك في هذه القضية بعد الآن؟»

وشعرت بشيء ما يموت في أعماقها، وقالت بفتور: «إنني كما سبق وقلت لي نفس الكلمات، لا أستطيع منعك من أخذها. ولكنني لن التزم الصمت. لقد عاملتني السيدة معاملة غاية في الرقة والطيبة، وأنا لا أريد أن أقابلها بالتجاوز عن محاولة غشها واستغلالها بهذا الشكل.»

قال: «إذهبي إليها، إذن وانظري إذا كانت تصدقك.»

عضت ميغ شفتها وهي تقول: «ولكنني لا أريد لها أن تتألم أيضاً. وسيتملكها اليأس كذلك.» وسكتت برهة ثم قالت: «ولكن هنالك بديلاً لذلك.»

نظر إليها ساخراً وهو يقول: «يا للذكاء يا عزيزتي. هل ستخبرينني عن البديل، هذا؟»

قالت: «أريدك أن تنفض يدك من هذا الموضوع. اعتذر بأي شيء للسيدة، ودعها تستخدم مهندساً آخر.»

قال: «وما الذي سيحدث لي أنا؟ هل أختفي هكذا، بكل بساطة، وأعود إلى باريس كما فعل جدي؟» وهز رأسه قائلاً: «كلا. لا أظن أن أوكتافيان سيعيش بعد ردة فعل أخرى.»

قالت: «فكر في أي شيء. وسيكون من الأفضل، على المدى الطويل، بالنسبة للسيدة، أن تبتعد أنت عن القصر تماماً.»

لوى فمه وهو يقول: «يبدو أنك تدبرت أمر كل شيء. ولكنني لا أظن خطتك هذه ستنفع، لأنني لا أنوي تجنب قصر هاوت أرينياك الآن ولا في المستقبل، ولا أظن أن السيدة تريدني أن أفعل ذلك.»

قالت: «حتى ولو عرفت حقيقتك؟»

قال: «حاولي أن تخبريها بكل شكوكك. قد تستاء قليلاً، ولكن هذا لن يدوم.»

قالت بخشونة: «إن غطرستك لا تحتمل.»

هز كتفيه قائلاً: «إنها تثق بي أكثر مما تثقين بي أنت، يا جميلتي، وهذا هو كل شيء. ولكننا على كل حال، أصبحنا نفهم بعضنا، أليس كذلك؟»

ومشى نحو الأوراق، فجمعها ووضعها في الحافظة ثم دسّها في يدها وهو يقول محنياً ظهره لها باحترام: «مع تحياتي.»

حملقت فيه بدهشة وهي تقول: «هل... هل هذا كل شيء؟»

أجابها وهو يأخذها بين ذراعيه: «بقي هذا.» وكان احتضانه لها طويلاً حاراً وكأنه كان يريد أن يؤثر بها في أعماق نفسها إلى الأبد. ولم تقاوم هي، وعندما تركها، أخذت تنظر إليه وهو يبتعد دون أن يلتفت خلفه.

وعندما أنهت ميغ حزم أمتعتها، نزلت إلى الطابق الأسفل حيث كانت السيدة دي بريسو واقفة في الشرفة المؤدية إلى الحديقة. وسألتها: «هل كانت سيارة جيروم التي سمعت صوتها منذ فترة؟»

أجابت ميغ مكرهة وهي تشعر بالتعاسة: «نعم.» ربما كانت هي قد تحررت من أي وهم تجاهه، كما سبق وقال هو، ولكن كيف يمكنها أن تخبر هذه المرأة، التي تحبه كإبن لها، بأنه لا يفرق كثيراً عن اللص؟

وجلست على كرسي بقربها، ووضعت حافظة الأوراق التي تحتوي الادانة على منضدة بينهما.

قالت السيدة: «لا بد أنه كان مستعجلاً، وأظنه أحضر إليك أوراقاً أخرى للطباعة.» وضحكت برقة وهي تتابع قائلة: «إنه مستعجل على البدء بهذا العمل أكثر مني. ولكن هذا مفهوم.»

قالت ميغ بحذر في محاولة للابتداء بالموضوع: «إنها ليست أوراق للطباعة، بل بعض العروضات من متعهدي الاصلاحات. وقد فكرت في أنك ربما تحبين أن تريها.»

أجابت السيدة بدهشة: «حسناً. إن هذه الأشياء تستدعي كثيراً من التفكير والتأمل. ولكن جيروم سبق وبحثها معي.»

ابتسمت مستطردة: «لقد أحضر لي صينية الفطور هذا الصباح، انه يفعل هذا غالباً عندما يمضي الليل هنا، ثم ابتدأ يقرأ هذه الأرقام بعد ذلك.»

وازدردت ميغ ريقها قائلة: «هل فعل ذلك؟ ولكنه تركها معي. لقد ظننت...» وسكتت برهة، ثم اندفعت تقول: «هل كانت الأرقام مرضية بالنسبة لك؟»

قالت السيدة: «إنها أفضل كثيراً مما كنت أرجو.» ودست يدها في حقيبتها المعلقة في ذراع كرسيها، وأخرجت ورقة مطوية دفعتها إلى ميغ قائلة: «انظري بنفسك، يا صغيرتي.»

ونظرت ميغ. وكانت الأرقام المدوّنة بخط جيروم الذي لا يمكن أن تخطئه العين، هي الأرقام القليلة.

وسألت بتردد: «هل أنت متأكدة من أنها أرقام صحيحة؟»

أجابت السيدة: «نعم. نعم. وقد كان مستعداً لأن يريني النسخ الأصلية ولكنني توسلت إليه بأن يعفيني من ذلك.»

واستندت إلى وسادتها خلفها راضية وهي تقول: «عندما أنتهي من دفع نصيبي من تكاليف التصليح، عند ذلك سأرتاح تماماً.»

سألتها ميغ بذهول: «حصتك؟ إنني غير فاهمة تماماً. اتعنين أنك لا تدفعين تكاليف الاصلاحات هذه كلها؟» وتوقفت عن الكلام قائلة: «إنني آسفة إذ أوجه إليك هذه الأسئلة التي لا تعنيني.»

هزت السيدة كتفيها قائلة: «إن هذا لا يهم. فهو ليس سراً في الحقيقة. وأنت تقريباً، عضو في الاسرة على كل حال. إنني أدفع حصة من التكاليف، يا طفلتي، مع أن جيروم لم

يكن يريدني أن أدفع شيئاً أبداً. ولكنني أصررت. لقد جعلت ذلك، في الحقيقة، شرطاً لاتمام البيع.»

قالت ميغ ورأسها يدور: «البيع؟»

أومأت السيدة برأسها قائلة: «نعم البيع، وستوقع الأوراق نهائياً آخر هذا الأسبوع. وبهذا سيصبح قصر هاوت ارينياك. ملكاً لجيروم.» وابتسمت وهي تتابع: «وبهذا يتحقق أول أحلامي.»

وبادلتها ميغ الابتسام بضعف، بالنسبة إليها هي، لم تكن ثمة أحلام، بل كابوس حقيقي... وبالألوان الطبيعية.

لقد تسرعت حقاً، في توجيه كل أنواع الاتهامات إلى جيروم زيفاً وبهتاناً. ونعتته بأشنع الأوصاف مما لا يغتفر، بينما هو لم يكلف نفسه عناء الدفاع عن نفسه. وكان يمكنه ذلك بسهولة وإفهامها الأمور، ولكنه لم يهتم بذلك بما فيه الكفاية، وذلك لأنه لم يكن يهتم برأيها به، وهذه هي الحقيقة المحزنة. لم يكن حبها أو كراهيتها لجيروم تعني له شيئاً، وتصرفه هذا هو أكبر برهان على ذلك. وغمرتها تعاسة لا نهاية لها.

ومالت السيدة إلى الأمام تربت على يدها قائلة: «ومازالت لدي آمال أخرى.»

قالت ميغ وهي تنظر إلى يديها المتشابكتين: «أخشى أن تنتهي آمالك تلك بالخيبة.»

فزمّت السيدة شفتيها امتعاضاً وهي تقول: «لقد لاحظت أن العزيز جيروم كان مشغول البال هذا الصباح. أرجو أن لا تكونا قد تشاجرتما. هل تقاذت الدبوس هذا الصباح؟»

ألقت ميغ نظرة على قميصها القطني البسيط وهي تقول:

«إنه لا يتناسب مع ثيابي البسيطة هذه.» وسكتت برهة مترددة، ثم قالت: «سيدتي العمة. هنالك شيء يجب أن تعرفيه.»

فقالت السيدة: «وما هو يا عزيزتي؟»

وجذبت ميغ نفساً عميقاً، مهدئة بذلك أعصابها، ولكنها قبل أن تبدأ بالكلام، تصاعد صوت خطوات فيليبين قادمة نحوهما وهي تقول: «عفواً يا سيدتي، ويا أنستي.» ومضت تنقل نظراتها بين المرأتين مترددة وقد بان الجدّ على وجهها بشكل غير عادي، لتستطرد قائلة: «ولكن، هنالك زائرة.»

قالت السيدة: «إنني لا أتوقع زواراً.» وسكتت لحظة، ثم عادت تقول: «أليس لتلك الزائرة إسم؟»

قالت فيليبين وقد بان القلق على ملامحها ومالت عيناها نحو ميغ في ارتباك واضح. قالت: «نعم يا سيدتي إنها تقول... تقول إن اسمها الآنسة ترانت. الآنسة مارغوت ترانت.»

الفصل الثاني عشر

ساد صمت لا حد لعمقه، وتضرّج وجه ميغ إلى منابت شعرها وهي تحاول، مستميتة أن تفكر في شيء تقوله، ولكن تعاستها المفاجئة عطلت ذهنها عن التفكير.

وأخيراً، قالت السيدة: «إن هذا شيء مثير. دعيها تدخل يا فيليبين واحضري القهوة بعد ذلك.»

وعندما ذهبت هذه ممتثلة، قالت ميغ بسرعة: «دعيني أوضح لك يا سيدتي...»

قالت السيدة وهي تسوّي من نظارتها القاتمة وتدير وجهها نحو الباب: «في ما بعد، يا طفلتي.»

وبعد ذلك بلحظة، برزت مارغوت محاطة بهالة مسرحية كانت تبدو فاتنة واثقة بنفسها بشكل لا يصدّق، وهي تقف في بنطالها الضيق وقميصها الحريري، وحزام من الجلد برونزي اللون يحيط بخصرها النحيل ويماثله في اللون حذاؤها وحقيبتها المعلقة في كتفها.

وتقدمت مارغوت برشاقة نحو السيدة ووضعت قبلة على وجنتها اليسرى وهي تقول: «أوه، ما أروع هذا، هل تخليت عني تماماً؟» ونظرت حولها وهي تتنفس الهواء بنشوة، ثم تتابع قائلة: «بورك الهواء النقي، كيف لأحد أن يفضل سكن المدن؟» ووقعت ناظراها على ميغ التي كانت متجمدة في مكانها، فقالت: «مرحباً، يا ميغ.» وركعت على ركبة واحدة قرب كرسي السيدة وهي تستطرد قائلة: «أرجو

www.rewity.com

أنك لم تمانعي في أن تأخذ ميغ مكاني لعدة أيام، كان مما يبعث على الضيق الشديد ان تأخر طلب إجازتي التي قدمتها لكي أحضر إلى هنا. وأرجو أن تكون هي قد أوضحت لك الأمر تماماً.»

قالت السيدة: «هل كان الأمر كذلك؟ لقد فهمت.»

قالت مارغوت: «أتعنين أنها لم تخبرك؟» ونظرت إلى أختها تتصنع الذهول وهي تخاطبها قائلة: «إنك فظيعة، يا عزيزتي. ما الذي جعلك تنسين ذلك؟ وعلى كل حال، ليس هذا بذي أهمية، فأنا هنا الآن.» وعادت تدير نظرها في ما حولها.

قالت السيدة بصوت بارد كالثلج: «من هي إذن، بالضبط تلك الفتاة الثانية التي كان لي سرور استضافتها؟»

وقفت ميغ لتقول بهدوء: «إنني مارغريت لانغتري يا سيدتي. الأخت غير الشقيقة لمارغوت.»

قالت مارغوت: «إن ميغ عاطلة عن العمل، ففكرت في أنه قد ينفعها قضاء فترة في فرنسا. ولكنها أفسدت هذه الفرصة في الاستغراق بتتبع أخبار الكاثار المندثرين وما أشبه. أليس كذلك يا حلوتي؟» وعادت تستدير نحو السيدة مستطردة: «إن آخر عمل اتخذته ميغ كان في مكتبة قديمة. وهكذا غرقت في بقايا التاريخ المندثرة.»

قالت السيدة بجفاء: «ربما هذا ما جعلها تتلاءم مع هذا المكان.»

قالت مارغوت: «حسناً، إنني مسرورة إذ كانت ذات فائدة.» وخفضت من صوتها لتقول بلهجة ذات معنى: «أتعلمين أنها، في البداية، قد رفضت القدوم إلى هنا؟»

قالت السيدة: «إنك تحيّرينني... آه، ها هي ذي القهوة قد أحضرت. ربما بامكانك يا ميغ، هل هذا اسمك؟ ربما بامكانك ان تقومي بآخر واجب، كمرافقة لي، وتسكبي لنا القهوة. هل لك بذلك؟»

وصعقت ميغ في البداية، ليستبد بها الغضب، بعد لحظة موشكة ان تسكب القهوة كلها من الابريق على رأس مارغوت ذي الشعر الأشقر المصفف بغاية الأناقة. ولكنها عادت تطيع بصمت، لقد تعمّدت أختها أن تجعلها تبدو بمظهر القريبة البالغة الفقر. وهذا ما جعلها هي تشعر بثورة بالغة، خاصة بجعل مسألة انتحالها لشخصيتها، تبدو وكأنها فكرتها هي، وليست فكرة أختها.

وسحبت مارغوت كرسيها إلى جانب السيدة، وابتدأت تثرثر بمرح وطلاقة، وبدت بمظهر حسن بالنسبة إلى امرأة قد تخلى عنها حبيبها منذ فترة قصيرة، ولكن ميغ لاحظت نظرة ساهمة في عينيها الزرقاوين وخطوطاً ناتجة عن التوتر والقلق، حول فمها.

قد يكون الغيظ لهجران ستيفن كيرتيس لها، قد تملكها، ولكن قلبها لم يتحطم أبداً، كما بدا لميغ، لقد آلمتها الهزيمة ولكنها استعادت نفسها بسرعة لكي تتسلق طريقها إلى القمة مرة أخرى، ومن وجهة نظرها، فإن ستيفن كيرتيس هو الخاسر.

وارتشفت ميغ قهوتها رغم الغصة في حلقها، يبدو أنها هي أيضاً ستكون خاسرة. فقد سبقتها مارغوت إلى رواية قصتها بمنتهى الحذق، ولم يعد ثمة طريقة، الآن تجعلها تشرح للسيدة السبب الذي جعلها تقوم بهذا الدور المخادع، أو تقدّم أي اعتذار عنه.

وعندما سكتت مارغوت عن الكلام، قالت ميغ مخاطبة السيدة: «أسألك المعذرة في تجهيز أمتعتي للرحيل.» وترددت قليلاً، ثم تابعت: «وعلى كل حال، ليس ثمة سبب لبقائي هنا بعد الآن.» وكانت الكلمات تبدو، وهي تنطق بها، وكأنها تنتزع منها انتزاعاً.

أجابت السيدة بلهجة شاردة: «هذا صحيح. يوجد مكتب لسيارات الأجرة في قرية أرينياك فاطلبي من فيليبين أن تتصل بهم لإرسال سيارة لك. هل يناسبك أن يكون ذلك بعد نصف ساعة؟»

أومأت ميغ برأسها بشكل متوتر قائلة: «شكراً.»

تركت الشرفة رافعة الرأس وهي تشعر بعيني مارغوت تتبعانها. ولكن ساقيها كانتا تهتزان، ولكن ما الذي كانت تتوقعه في هذه الظروف؟ لقد كان من الواضح ان السيدة دي بريسو في غاية الاستياء، ومن يلومها على هذا؟

وأبلغت فيليبين التي كادت تتفجر فضولاً، أبلغتها أوامر السيدة في أن تطلب لها سيارة أجرة، ثم أحضرت معطفها المنزلي من غرفة المكتبة لتصعد بعد ذلك، إلى غرفتها.

كانت تظن أنها ستكون مسرورة لعدم قضائها ليلة أخرى هنا، وحوّلت ناظريها عن السرير العريض الحافل بالذكريات المؤلمة، إذ عادت إلى ذاكرتها ليلة أمس لكنها ما لبثت ان طردت تلك التصورات من ذهنها وهي تتأوه بحزن بالغ. محدثة نفسها بأن عليها أن تركز اهتمامها على الأشياء العملية، وثمة الكثير منها. وقررت، بعد ان أحصت ما بقي عندها من النقود، أن من الأفضل أخذ سيارة أجرة إلى مدينة آلبي، ثم، تستقل المواصلات العامة إلى تولوز

حيث المطار. إذ ما زال عندها نصف التذكرة المرتجعة، والمفروض ان تقدّم تاريخها المدوّن بعد حوالى الشهر، حتى ولو ذهبت واقفة في الطائرة.

ووضعت التذكرة وجواز السفر في حقيبتها، وهي تتنهد.

جاءها صوت مارغوت التي كانت واقفة عند الباب يقول: «تأكدي من أنك لم تنسي شيئاً.»

خطت إلى داخل الغرفة وهي تنظر حولها مغضنة أنفها باشمئزاز وهي تستطرد قائلة: «هل هذه هي غرفة الضيوف؟ إذن، كيف تبدو بقية الغرف. على كل حال، ليس للشحاذين حق الاختيار وهذا مكان يصلح للاختباء إلى ان تنتهي العاصفة.» ونظرت إلى ميغ وهي تتابع: «أظنك سمعت عن الصعوبات البسيطة التي صادفتني؟»

أجابت ميغ: «نعم. ولكنني لم أتوقع أنك ستأتين إلى هنا، نتيجة لذلك.»

هزت مارغوت كتفيها قائلة: «وإلى أين أذهب إذن؟ أتعلمين ان تلك السافلة قد ألقت علينا بأولادها الفظيعين؟ وهي تتحدث عن الانتقام؟»

قالت ميغ: «ولكن مربيتي هي التي تحمّلت كل هذا العبء.» وسكتت لحظة ثم تابعت تقول: «وبهذه المناسبة، ماذا جرى لاتفاقنا ذاك بالنسبة إلى الكوخ؟»

تثاءبت مارغوت ثم قالت: «تباً لك، كم أنت مملة أحياناً. دعي ذلك ينتظر، من ذا الذي يهتم بذلك الآن؟»

أجابت ميغ بخشونة: «أنا أهتم بذلك. إنني في الواقع، مهتمة بأشياء كثيرة. بعمتك مثلاً، وأيضاً بهذا المنزل.»

زمّت مارغوت فمها عابسة وهي تجيب: «إنهما، هما الاثنين في طريق الفناء، كما أرى. كنت أظن ان المرأة العجوز تملك مالاً.»

وفكرت ميغ عابسة بأن المرأة العجوز ستحصل، قريباً على المال، وأن مارغوت، قد جاءت في الوقت المناسب تماماً.

قالت: «ومع هذا، فقد شعرت كأنه منزل عشت فيه مدة طويلة.»

قالت مارغوت بحدة: «لا تكوني سخيفة، فأنت جئت إلى هنا لتوّك.»

قالت ميغ: «لكي تكتشفي مكان انتمائك، لا يأخذ ذلك دائماً وقتاً طويلاً.»

قرعت فيليبين الباب قائلة: «لقد وصلت سيارة الأجرة يا آنسة. والسيدة تنتظرك لتودعك في الصالة.»

قالت مارغوت: «إذن، فأنا أتركك الآن لألقي نظرة على هذه الأنحاء.» وهزت كتفها وهي تقول: «ماذا تراهم يفعلون هنا بالنسبة لحياة الليل، تباً لهم.»

وأنزلت ميغ حقيبتها إلى الردهة في الطابق الأسفل. حيث كان السائق، وهو رجل قصير القامة متهدل الشاربين، كان ينتظر ليضع الأمتعة في صندوق السيارة، ثم مشت نحو الصالة مكرهة، حيث كانت السيدة واقفة بجانب المدفأة الخامدة، وقد عقدت ذراعيها على صدرها، وبدا وجهها ساهماً بعيداً عن الابتسام. وكان الوضع، كما رأته ميغ وهي تشعر بالتعاسة، كان لا يعدو وضع سيدة منزل تطرد مستخدماً غير مرغوب فيه.

قالت بهدوء: «إنني أريد ان أشكرك يا سيدتي لكل ما أبديته نحوي من الإكرام. وانني آسفة لتضليلي لك بذلك الشكل. وكنت أتمنى لو كنت أخبرتك بالأمر بنفسي.»

أجابت السيدة: «لا أظن المسألة تستحق كل هذا.» كان هذا كلام سيدة عظيمة. ومدت يدها قائلة: «أتمنى لك رحلة موفقة، يا آنسة لانغتري.»

قبضت ميغ على أصابعها وهي تفتش، عبثاً، عن شيء من اللين في ملامح السيدة المسنّة. وقالت: «إنني... إنني لم أحتفظ بالدبوس الحلية الذي أهديتني إياه. فقد رددته إلى السيد مونتكورت. وأرجو ان لا يكون عندك مانع في ذلك.»

أومأت السيدة قائلة: «ربما كان هذا أفضل تصرّف بشأنه.» وتركت يد ميغ واستدارت مبتعدة منهية الموقف.

وتمتمت ميغ شيئاً وهي تخرج من الغرفة. وكانت فيليبين تنتظر عند الباب الخارجي، لتجد ميغ نفسها مغمورة بعناقها الحار.

قالت فيليبين: «لا تدعي الحزن يبدو عليك هكذا، أيتها الصغيرة. إن كل شيء يصلح مع الوقت.» وأخرجت من جيب مئزرها مغلفاً سميكاً وهي تقول: «لقد طلبت مني السيدة أن أعطيك هذا.»

قالت ميغ: «أظن ربما كان ثمة خطأ، وهذا ليس لي أنا.»

أجابت المرأة وهي تهز رأسها بعنف، وتدس الطرد في يد ميغ: «كلا، كلا، إنه لك. يجب ان تأخذيه، إلى اللقاء.»

وعندما ابتعدت بها السيارة، لم تنظر إلى الخلف. ولم تستطع تصديق السرعة التي حدث بها كل هذا. ولكن، هكذا

حدثت الأشياء منذ وصولها إلى هذه المنطقة... سلسلة من التغييرات المفاجئة. من الشمس إلى العاصفة، من الحب المحموم، إلى الكراهية المحمومة. وبعد، إنها لا تستطيع الادعاء بأنها لم تتلق تحذيراً، قبل حضورها من مخدومها العجوز ذاك.

واستقرت في مقعدها، ثم أخذت تنظر إلى المغلف الذي ما زال في يدها، راجية ألا يكون نقوداً وإلا فسيكون في ذلك نهايتها المخزية... والتي هي أسوأ من ظهورها بشكل لا أخلاقي.

ومزقت الغلاف، لتنظر إلى ما يحتويه غير مصدقة لقد كان كتاب الشعر ذاك. وفتحته عند الصفحة البيضاء التي تلي الغلاف لتقرأ، مرة أخرى، الكتابة الباهتة. (إلى مارغريت. من كل قلبي. ج.) وتساءلت ذاهلة، كيف أمكن للسيدة أن تتخلى عن هذا الكتاب. وكيف يمكنها هي أيضاً، أن تحتمل الاحتفاظ به؟

وابتدأت تقلب الصفحات، ليفتح الكتاب من ذاته، على صفحة معينة وكأنه اعتاد أن يبقى مفتوحاً عليها. وتألقت الكلمات أمام عينيها مرة أخرى (حبي الوحيد، حبيبتي التي تسعدني) وتابعت القراءة قبل ان تغشي دموعها الكلمات (حبيبتي الحلوة، ينبوع البهجة كلها هي.)

ربما كانت السيدة تعلم ان هذه الكلمات هي كل ما عليها هي أيضاً ان تتذكر، وتأكدت من أنها هي الكلمات المطلوبة.

إنها ليست أغاني الأوباد طبعاً. ولكن، كيف يمكن أن يكون ثمة سواها؟

وجفلت إذ أخرجها من شرودها صوت بوق السيارة

يزعق فجأة، ثم تمتمة سباب من السائق: «هؤلاء الحمقى المجانين. ما الذي يظن أنه يصنع؟»

ونظرت ميغ لترى سيارة تقفل عليهما الطريق تماماً، لا بد ان هنالك حادث ما. انفجار عجلة مثلاً جعل السيارة تستدير بهذا الشكل. وتمنت أن لا يكون أحد قد تضرر.

وعند ذلك، ميّزت السيارة، فأغلقت الكتاب ببطء، وهي ترى راحتيها تعرقان، وتكومت إلى الخلف في مقعدها وكأنها تحاول أن تندس متلاشية في داخل ذلك المقعد المهترىء تنجيده.

فتح باب السيارة بعنف وصوت جيروم يقول بلهجة عادية، وسط سباب من السائق: «ها اننا نعود إلى الصفر. عودي إلى حيث ابتدأنا، يا جميلتي، هيا اخرجي قبل أن تتعرقل حركة السير.»

حملقت ميغ فيه قائلة: «أبداً لن أفعل مثل هذا.»

رفع حاجبيه يسألها: «هل تحبين أن أحملك مرة أخرى؟» وتحول إلى السائق الساخط وخاطبه بكلمات هادئة لم تفهم ميغ معناها، ثم ناوله بعض الأوراق المالية.

ورأت ميغ، وهي تنزل من السيارة، حقيبتيها يخرجهما السائق من صندوق السيارة.

ضربت قدمها في الأرض تسأله ساخطة: «ما الذي تفعله؟ دع الأمتعة مكانها.»

هز السائق كتفيه، ان عليها ان تتفهم أنه، بعد هذا العطاء السخي، أن السيد حر في أن يقفل الطريق، وأن يختطف منه ركابه وذلك إلى ان ينشف البحر. ونظر إلى جيروم يغمزه راضياً، قبل ان يحوّل اتجاه سيارته مبتعداً.

وتقبضت يدا ميغ وهي تقول بحدة: «ما الذي تظن نفسك تفعله؟»

أجاب وهو يلقي بأمتعتها في صندوق السيارة ثم يصفق الباب: «آخذك إلى البيت.»

قالت وهي تتساءل عما إذا كان عمله هذا مبالغة منه في إكرامها عند الوداع: «إلى انكلترا؟»

أجاب: «بل إلى منزلي أنا، هذا إذا كنت قد ابتدأت تعتبرين منزلي منزلاً لك. ذلك ان القصر، بالطبع سيبقى منزل السيدة مارغريت طيلة حياتها.» ونظر إليها بتلك الابتسامة المديدة التي تجعل قلبها يخفق عالياً، وهو يتابع: «حسناً، هل يمكنك ان تمضي حياتك معي في مسكني الغونكود؟»

كانت أشعة الشمس الذهبية، دافئة، والحشائش على جانبي الطريق، والنسائم تحرك أغصان الأشجار لتنشر معها رائحة الثمار الناضجة.

قالت: «كلا.» وأردفت بضعف: «إن هذا جنون.»

فتح لها باب السيارة فصعدت إليها بعد إذ لم يعد لها خيار بعد ما ذهبت سيارة الأجرة. وربما، بعد ان يعود إلى جيروم وعيه، ربما يوصلها إلى مدينة آلبي كما كانت قررت.

وسألته قائلة: «كيف صدف ان كنتَ هنا؟»

أجاب: «لقد اتصلت السيدة مارغريت بمسكني وأخبرتني انك راحلة، وبموعد وصول سيارة الأجرة إليك. وتكهنت بأنه سيحضرك من هذا الطريق. وإلا فقد كنت مستعداً لمحاصرة المطار في تولوز.»

قالت: «هل قلت ان السيدة أخبرتك؟ ولكن هذا غير ممكن إذ انها طردتني طرداً.»

قال بهدوء: «إنها فكرت بأن من الأفضل لك ان تكوني معي، إلى ان تجد الوقت الكافي لتفرغ من شأن مارغوت.» وابتسم لها، وهو يتابع: «إنك لست الوحيدة التي في استطاعتها القيام بدور تمثيلي، يا جميلتي.»

سكتت لحظة، ثم قالت بصوت منخفض: «لقد عرفت بمسألة تلك العروض وحقيقتها.»

فقال: «أرجو ان لا تكوني قد أشركت السيدة في هذه المعرفة، إذ ان لها كرامتها. فهي ستظن انني أقدم إليها إحساناً.»

قالت: «ولكن هذا ليس إحساناً، إذ انه لو ان الأمور كانت قد سارت كما يجب، وتزوجت من جدك، لكانت قد حصلت على سعادتها وراحتها على الدوام. وأنت الآن، فقط... تصلح ما فسد.»

قال برقة: «إنك متفهمة إذن للأمور. لقد كنت متأكداً من ذلك فيك.»

فعضت شفتها قائلة: «ولكن ما كان لك ان تعرف ذلك، خصوصاً بعد ما أسأت الحكم عليك وأطلقت عليك نعوتاً شائنة.»

قال: «ربما كنت أستحق ذلك لإساءتي الحكم عليك وإطلاق نعوت شائنة عليك أنا أيضاً.»

قالت: «ولكنني أنا ادعيت انني مارغوت ولا شيء يمكن ان يغيّر من هذا، بينما ذنبك أنت كان لا يخرج عن الرقة الزائدة.»

أوقف جيروم السيارة إلى جانب الطريق، ثم قال بلطف: «ولكنني لم أكن رقيقاً معك، لقد ظننت ان من السهولة أن

أكرهك لما أخطأت بحق كيرين الرقيقة الدافئة المشاعر والتي تحب زوجها إلى درجة بالغة.» وهز كتفيه متابعاً: «مع ان ليس في أسرتنا من استطاع ان يفهم السبب في ذلك. عند ذلك قابلتك، ليتملكني شعور لم أعرفه من قبل، أدركت معه أنه ليس في امكاني أن أبعدك عن حياتي. وبعد ذلك رأيت اسمك على أمتعتك.» وهز رأسه متابعاً: «أظنها كانت أسوأ لحظة في حياتي، حين رأيت انني انجذبت إلى فتاة فاسدة كانت تحاول ان تدمّر حياة ابنة عمي. وصمّمت على ان أبقى بارد المشاعر وأنا ألاحقك، ولكن في كل لحظة كنت أقترب فيها منك، كانت مشاعري تتمزق، فمن ناحية كنت أريد ان انتقم منك دون رحمة، ومن ناحية أخرى، كنت أرى ان أبقيك معي طيلة حياتي، وذلك في نفس الوقت.»

قالت برزانة: «لا أرى في ذلك أي شيء خطأ.»

ابتسم وهو يلامس وجنتها: «آه، سأذكرك بكلامك هذا، في ما بعد.»

قالت بصراحة ونظراتهما تتعانقان: «أرجو ذلك.» لم يعد ثمة شيء مستوراً. فهو يسيطر على أحاسيسها بأجمعها، نفسياً وجسدياً.

قال: «وفي هذه المرة، سأعاملك بالرقة التي تستحقينها. كان عليّ ان أدرك منذ البداية انك لست مارغوت.» وأمسك بيدها يضغطها.

قالت مازحة: «هل لأنك وجدتني طابعة فاشلة؟»

ضحك قائلاً: «كلا... وإنما لكل شيء قلته... وكل شيء قمت به. ولكنني أخرست شكوكي ورأيت فقط الذي أردت أن أراه.» ولوى فمه نادماً ثم تابع قائلاً: «وفي الليلة الماضية، كان يجب عليّ ان أدرك انك لم ترتبطي بعلاقة مع رجل من

قبل، وعندما تأكدت من انك لست مارغوت، شعرت بالغضب... غضبت على نفسي لكوني كنت أعمى وأحمق وعديم الاحساس. حتى ان هذا الغضب طالك أنت أيضاً.» وتأوه وهو يتابع: «في تلك اللحظة التي كان علينا فيها أن نتعلم الحب، أخذنا نتبادل الصراخ.» ونظر إليها بألم وهو يسألها: «أما كان عليك ان توليني ثقتك وتخبريني بالحقيقة قبل ذلك، يا مارغريت؟»

تنفست بعمق قائلة: «لقد أردت ذلك كثيراً. ولكن الأمر لم يكن يخصني وحدي، ذلك ان مارغوت قد حملتني على الحضور رغماً عني وذلك بتهديدي ببيع كوخ مربيتي العجوز ووضعها في الملجأ، إذا أنا لم أوافق.» وسكتت برهة، ثم قالت عابسة: «في الحقيقة، ربما هذا سيحدث الآن، فأنا لا أثق بمارغوت ولا بأمها بالنسبة لهذا الأمر.»

سألها: «هل تلك المربية مسنة واهنة؟»

أجابت: «كلا، أبداً. وإلا لما كانت قادرة على العناية بأطفال ابنة عمك كيرين الآن.»

قال: «ربما كان يسرها، إذن، أن تأتي إلى فرنسا للعناية بأولادنا، عندما يأتون.»

طفرت الدموع من عينيها وهي تقول: «إن هذا سيسعدها جداً... أوه، جيروم.»

قال برقة: «إن هذا، طبعاً يعتمد على نقطة صغيرة، وهي إذا كنت تحبينني كما أحبك. إنك لم تقولي هذه الكلمة بعد. وربما كان الأمر مبكراً، بالنسبة إليك.»

قالت: «كلا، إنه ليس مبكراً أبداً، وما أغرب أن نكون نحن الاثنين واثقين إلى هذا الحد.»

قال: «ليس نحن فقط. فالسيدة كانت واثقة من ذلك منذ البداية. يجب أن أتصل بها هاتفياً حالما نصل إلى البيت لأعلمها أنك معي وفي أمان، ولست بانتظار الطائرة التي تعود بك إلى انكلترا.»

قطبت حاجبيها قائلة: «أرجو ان يسرّها ذلك، فقد كانت في غاية البرود عندما تركتها.»

عبس قليلاً وهو يجيب: «كانت تريدك ان ترحلي لأنها أحست ان حضور مارغوت سيزيد في توترك وتعاستك. فهي لم تكن مسرورة مني هذا الصباح عندما أخبرتها كيف انني أسأت التصرف معك من كل النواحي.»

فكرت ميغ لحظة ثم قالت: «أتعني أنها كانت تعلم، عندما رأيتها في الصباح، أنني لست مارغوت؟»

أومأ برأسه قائلاً: «لقد قالت كما قلت أنا، انها كانت دوماً تشعر بذلك، لأن مثل تلك الطفلة المدللة سيئة الطبع، لا يمكن ان تصبح مثل هذه الفتاة الهادئة الرقيقة.» ونظر إلى ساعة يده وهو يتابع: «أظن الآنسة مارغوت ترانت لا بد قد غادرت الآن القصر عائدة إلى انكلترا، ربما أكثر حزناً وحكمة، وإن كنت أشك بذلك. وكذلك ضيوفي سيكونون قد غادروا بيتي هم أيضاً. وأرجو ألا يتقابلوا في الطريق.»

شهقت قائلة: «ضيوفك؟ أتعني كيرين؟ إذن فقد كانت هي التي كنت رأيتها...»

قال ضاحكاً: «إن لك نظراً حاداً، إن زوجها معها الآن. لقد اتصلت بمنزلي هاتفياً في أول ليلة كنا فيها معاً أنا وأنت، في منزلي، لتقول إنها قادمة إليّ. وقد انضم إليها هو أمس. وقد اتصلوا بي لهذا، هاتفياً أثناء العشاء. وهما

الآن قاصدان باريس لقضاء شهر عسلهما الثاني في شقتي هناك.»

فكرت لحظة وعادت تسأله: «ولكن، كيف علم هو أنها عندك؟»

أجاب قائلاً ببساطة: «لقد دلّه إحساسه على ذلك، وهذا جعلني واثقاً من مستقبلهما معاً.» ومدّ ذراعه يجذبها إليه قائلاً: «هل تقبلين بأن تكوني زوجتي، يا مارغريت، فتشاركينني العواصف وأشعة الشمس؟»

أجابت بابتسامة مرتجفة: «نعم. حبي الوحيد... حبيبي الذي يسعدني. وأنت، هل ستريننني فجراً آخر من نافذتك الواسعة؟»

قال يجيبها: «كل صباح من حياتنا. والآن، هيا بنا إلى البيت.»

وعندما تحركت بهما السيارة، قالت: «ولكن، هنالك مشكلة واحدة، يا جيروم. ما الذي سنفعله بالنسبة إلى أوكتافيان؟ متى تراه سيتوقف عن تسميتي بالانكليزية؟»

ضحك وهو يجيب: «ربما، يا حبيبتي، عندما يأتينا أول ولد، فيكون هو بمثابة جده.»

وكان كلامه صحيحاً...

تمت